الباب الثانى

الأدب الشعبى البيزنطى

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

ملحمة ديجينيس[1]

(أ) عرض وتلخيص:

كان يعيش فى «قبادوقيا» من أملاك الامبراطورية الرومانية ـ أمير من أسرة «دوكاس» يدعى «أندرونيكوس». وقد ولد لهذا الأمير من زوجته «أنا» ـ وهى من أسرة «كيناماد» خمسة من البنين، فكان لذلك يتمنى أن تولد له بنت. ثم ولدت له بنت جميلة سماها «إيرين». وقد تنبأ المنجمون لهذه البنت بأن أميرا عربيا سوف يختطفها حينما تكبر. ومع حرص أهلها عليها ورعايتهم لها كتبت لتلك النبوءة أن تتحقق. فقد حدث أن خرجت «ايرين» فى رحلة قصيرة مع خدمها، وكانت إذ ذاك قد بلغت الثانية عشرة من عمرها. وتصادف أن كان الأمير العربى «موصور» ـ حاكم سوريا فى ذلك الوقت ـ يشن غاراته على حدود الدولة الرومانية. فشاهد الفتاة فى رفقة

---

(١) قمنا بتلخيص الملحمة عن الترجمة الانجليزية التى قام بها «مافروجورداتو» انظر: Iohn Mavrogordato: Digenis Akrites Clarendo Press, Oxford, 1956.

ومعنى ديجينيس آكريتس AIFENOYE AKRITOY المولد حامى الحدود. وقد كان حراس الحدود يتمتعون بسلطة شبه مستقلة. وكانوا ينتشرون على الحدود الشرقية والجنوبية للامبراطورية حيث كان الأمن والسلام مهددين دائما. (انظر:

Krumbacher: Geschichte der. Byzantinschen Literatur; München 1891. S. 413.

خدمها وأغرم بها واختطفها. ورجع الخدم بعد أن عجزوا عن استنقاذها منه يحملون إلى الأم النبأ المحزن. عندئذ قام أخوتها الخمسة من فورهم ليخلصوا أختهم ولينتقموا من الأمير العربى. ودخل الأخوة على الأمير العربى وهو جالس على عرشه الذهبى وحوله حشمه، فأخذوا بالبهاء والروعة، وأدوا له التحية خاشعين، وأخبروه بأنهم قد جاءوا فى طلب أختهم، وأنهم لن يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم بدونها. فلما أبى، جعلوا يتوسلون إليه بأعز ما لديه: بالمسجد فى «بالرمو»[1] وبالصخرة المعلقة[2]، وبقبر النبى أن يبيعهم أختهم بما شاء من ثمن. وأخذ الأمير العربى يصغى إليهم ـ إذ كان يجيد اللسان الرومى ـ ثم قال لهم: إن كنتم تريدون خلاص أختكم فاختاروا بطلا من بينكم لمبارزتى، فإن أنا غلبته فأنتم عبيدى وإن غلبنى أخذتم أختكم. فاختاروا أصغرهم وهو قسطنطين ـ لمبارزته..

واحتشد الجمع لمشاهدة القتال، وإذا بالموقف ينجلى بعد قليل عن انتصار الفارس الرومى. عندئذ اعترف الأمير العربى له بفروسيته، وطلب من الأخوة أن يبحثوا عن أختهم بين سباياه.

---

(١) مدينة فى جزيرة صقلية تقع فى الجزء الشمالى منها. وحينما فتح العرب صقلية اتخذوا هذه المدينة عاصمة لهم، ثم هدموا الكنيسة التى كانت تشتهر بها وشيدوا مكانها مسجدا. انظر:

Encyclopaedia Britannica; V. 17, pp. 116-7.

(٢) أنظر: F.W. Haslick: Christianity and Islam under the Sultans; Oxford 1929, V. 11, p. 395.

فهو يحكى أن هناك فى شمال سوريا صخرة مقدسة معلقة بطريقة تبعث على العجب ويقول الناس هناك عنها إن سائلا يخرج منها يشفى أمراض العين..

ولكن الأخوة أتعبوا أنفسهم فى البحث عنها دون جدوى. عندئذ أخبرهم أحد الأعراب أن الأمير قد قتل الكثير من الفتيات اللاتى لم يمتثلن لأمره، وربما كانت أختهم من بين القتلى. ثم إنه أطلعهم على حشد من أجساد القتلى المتراكمة. فلما رأى الأخوة ذلك أخذوا يصرخون، وذهبوا إلى الأمير العربى وطلبوا منه أن يقتلهم، إذ لم يكن لهم سبيل إلى الرجوع إلى بلادهم بغير أختهم. فلما لمس الأمير مقدار حزنهم سألهم: من أنتم، وإلى أى أسرة تنتمون، وفى أى جند تسكنون؟» فأجابوه: «نحن نسكن القطاع الشرقى وننتمى إلى أسرة رومانية نبيلة، فأمنا تنتسب إلى كناماد، وأبونا إلى دوكاس من عائلة قسطنطين، ولنا من أخوالنا وأعمامنا إثنا عشر قائدا. منذ زمن نفى والدنا.. بسبب بعض الحماقات، ولم نكن نحن ـ مع الأسف الشديد ـ فى بلادنا حين قمت أنت بغاراتك وسبيت أختنا، ولولا ذلك لما استطعت أن تقتحم أرضنا. وسواء أكنت تابعا للخليفة فى بغداد أو كائنا من كنت فإننا ـ حين يرجع أقرباؤنا بوالدنا من الأسر ـ سنبحث عنك أينما كنت، ولن نترك ثأرنا»[1]. وهنا قال لهم الأمير: إننى أيها الرجال الطيبون ابن خريزوفيروجس وبانتيا[2]. جدى لأمى هو أمبرون، وعمى قرباص. توفى والدى وأنا طفل فسلمتنى أمى لأحد أقربائنا من العرب الذى قام بتنشئتى على مبادىء الدين الإسلامى. ولما صرت بطلا بينهم جعلونى حاكما على سوريا بعد أن أعطونى ثلاثة آلاف رجل مسلحين. فأخضعت سوريا والكوفة، وإن كنت لا أريد أن أُزهى كثيرا بانتصاراتى. ثم استوليت

(١) الأبيات من ٢٦٥ إلى ٢٨٢.

(٢) فى مخطوط «ترابيزون» تسمى «بانتيا». (انظر ما فروجورداتو، ص ٣١).

على عمورية وأيقونية[1]، ثم قضيت على اللصوص والوحوش، كل هذا صنعته ولم يقف فى سبيلى قائد أو جيش. وبالرغم من ذلك أخضعتنى امرأة لجمالها وأصبحت أسيرا لها[2]. قال ذلك ووعدهم إن هم زوجوه من أختهم أن يرحل معهم إلى رومانيا ويعتنق الدين المسيحى. عندئذ وعده الأخوة بالزواج من أختهم واستعد الجميع للرحيل إلى رومانيا وأطلق الأمير العربى سراح كل الأسرى الرومان. وسعد الأخوة بما حدث، وكتبوا إلى أمهم يخبرونها أنهم قد عثروا على أختهم، وأنهم قد وجدوا لها زوجا أميرا قد ترك دينه الإسلامى واعترف بالدين المسيحى. وختموا خطابهم إليها طالبين منها أن تعد للزفاف عدته. وسعدت الأم بوصول تلك الأخبار إليها وإن ساورها الشك فى أن يكون ذلك الأمير العربى متوحشا لكونه وثنيا[3]. ولكن ما أن وصل الجميع إلى رومانيا حتى أقيمت الأفراح وزف الأمير العربى إلى «ايرين». وقد أنجب منها طفلا سماه «ديجينس بازل أكريتس».

وكان من الطبيعى أن تغضب والدة الأميرة موصور من فعلته، بخاصة أنه كان قد استقر نهائيا فى رومانيا. فأرسلت إليه تعاتبه وتؤنبه وتقول له: «لقد

---

(١) يرى الأستاذ مافروجوردانو أن اسم Iconiun اختلط مع اسم البلد Akroinon الذى كان مجالا للحروب العربية البيزنطية، والذى لاقى فيه «السيد البطال» البطل العربى حتفه سنة ٧٤٠م أما بلدة Iconium وهى قونية، فقد شهدت حوادث متأخرة فى عهد السلاطين الاتراك سنة ١١٥٩م أى بعد الحوادث التى تحكيها الملحمة البيزنطية بحوالى قرن من الزمان.

انظر: Cambridge Med. His., IV 121.

(٢) الأبيات من ٣٨٩ إلى ٣٩٢، ٣٩٧ إلى ٤٠٩..

(٣) كما أن قصة ذات الهمة تتحدث دائما عن المسيحيين بوصفهم كفارا، فكذلك تصف الملحمة البيزنطية المسلمين بنفس الوصف..

أطفأت النور فى حياتى وأفقدتنى بصرى. كيف نسيت يا بنى العزيز أمك وتنكرت لأهلك ودينك وبلدك حتى أصبحت سيرتك تلوكها الألسن فى سوريا؟. أنسيت ما فعله أبوك؟ كم قتل من جنود رومانيين وكم حاز عنده من عبيد، وكم سبى من أميرات حسناوات وملأ السجون من الأبطال، ولكنه لم يصنع كما صنعت. وحينما أحاط به جيش الرومان أقسم له القواد بأغلظ الإيمان أن الامبراطور سيجعل منه بطريقا وفارسا عظيما إذا هو ألقى سلاحه، ولكنه أبى وصمم أن يكون النبى رائده، واحتقر كل مجد ولم يأبه بالثورة. عندئذ قطعوه إربا إربا ثم أخذوا سيفه»[1]. ثم ختمت خطابها إليه تحذره من أن أمراء سوريا قد عزموا على قتل أولاده وسبى زوجته التى تركها فى سوريا ثم ترجوه فى النهاية أن يحضر ويأتى معه زوجته الرومانية إن شاء، وتصف له طريقا آمنا بعيدا عن أعين الرومان ليعود منه..

وحمل الخطاب بعض الأعراب وساروا حتى وصلوا إلى رومانيا. وهناك عند مكان، يسمى «الصخرة الجوفاء» عسكروا بخيامهم وذهب أحدهم ليسلم الأمير رسالته. فلما فض الأمير الرسالة وقرأها قرر أن يذهب ليرى أمه وأولاده وزوجته. ثم دخل على زوجته الرومانية وأطلعها على حقيقة الأمر، وطلب منها أن تصحبه خفية لأنهما لن يطيلا الاقامة فى سوريا. فسعدت الزوجة بمرافقته ولكنها أخبرته بأنه لابد من اطلاع أخوتها على جليه الأمر إذ أن أخاها الصغير رأى حلما فسره مفسر الأحلام، وهم الآن فى انتظار ما قد يحدث. لقد رأى أخوها كأن صقورا تحلق على الصخرة الجوفاء تطارد حمامة، فلما أوت الحمامة إلى مكان تبعها باز حتى صادها. فلما حاول

(١) انظر الأبيات من ٣٩٧ إلى ٤٠٩ من الملحمة..

قسطنطين تخليص أخته ارتعد خوفا ثم استيقظ. فلما قص الأخ الصغير رؤياه على أخوته قرروا أن يرحلوا إلى الصخرة الجوفاء ويرقبوا ما قد يحدث. فلما وصلوا إلى ذلك المكان إذا بهم أمام خيام للأعراب. ولما سألوا الأعراب عن غرضهم لم يكتموه وأطلعوهم على الحقيقة. وظن الأخوة بالأمير سوءا واعتقدوا أنه بدا ينفذ خطة كان قد أخفاها فى نفسه وأنه ينوى أخذ أختهم. والرجوع بها هى وابنها إلى سوريا. فلما رأوا خطاب أمه أطمأنوا، ولكنهم قرروا أن يرحل الأمير بمفرده حتى يعود سريعا.

ثم رحل الأمير بمفرده مع رفقته. وكان يذكر زوجته الرومانية فى كل خطوة، وأخذ يقدر الطريق الذى سيقطعه ذهابا وإيابا حتى يرجع إليها. وحينما قابله أسد فى الطريق خاطبه قائلا: «وكيف تجرؤ أيها الوحش المخيف أن تقف فى سبيل الحب المشتعل؟»[1] ثم هجم على الأسد وقتله وأمر رفاقه أن يخلعوا أسنانه لكى يحتفظ بها لابنه عندما يرجع..

والتقت الأم بابنها بعد غياب طويل، ودار بينهما الحديث عن مغامرات ابنها الأخيرة. وبعد هذا أخذت الأم تذكر ابنها بدينه الذى هجره، وبمعجزات الرسول لعله يرجع إلى الإسلام مرة أخرى. قالت له: «أسمعت ياولدى فى رومانيا بمثل المعجزات التى حدثت عند قبر الرسول؟ اتذكر حينما ذهبت معى للصلاة ذات مرة فإذا بالضياء يشع من على وسط الظلام؟ أرأيت هناك ما سمعنا عنه من أن مختلف الحيوان من أسود وذئاب وخراف ترعى بعضها بجانب البعض حول الرسول حينما كان يؤدى صلاته دون أن يحاول أحدها إيذاء الآخر، حتى إذا انتهى النبى من صلاته انحنت له خشوعا؟..

---

(١) أنظر البيتين ٧٣٣ ـ ٧٣٤...

أرأيت معجزات أكبر من ذلك فى رومانيا؟..

ألسنا نملك منشفة النعمان ـ الملك الأشورى ـ الذى كان أهلا لأن تتحقق معه المعجزات لما كان عليه من الفضائل؟»[1].

وبعد أن سمع الابن كلام أمه قال لها: «إننى يا أمى العزيزة على علم

---

(١) يتساءل «هنرى جويجوار» عن منشفة النعمان هذه ويقول: لابد أنه يقصد بها الصورة المقدسة التى وجدت فى «اديسا». وهى تراث مسيحى ثمين إذ أنها صورة حقيقية للمسيح طبعت على منشفة وجهه. وقد أرسلها المسيح عليه السلام إلى الملك «أيجار» حاكم اديسا. هذه الذخيرة استولى عليها القائد البيزنطى «كوركواس» حينما فتح تلك المنطقة سنة ٩٤٤م وحملها سعيدا بها إلى القسطنطينية..

وهذا الغرض الذى فرضه جويجوار تفسيرا لمنشفة النعمان جعله يجزم بأن الملحمة لابد أن تكون قد كتبت قبل سنة ٩٤٤م وعلى وجه التحديد بين سنة ٩٣٠م وسنة ٩٤٤م. أما الأستاذ «مافروجورداتو فيرى أن مؤلف الملحمة الذى كتبها بالقرب من تلك المناطق المذكورة، والذى كان عارفا بما لتلك المناطق من تراث، لا يمكن أن يخلط بين النعمان الأشورى الذى شفاه النبى «اليشع» وبين الملك ابجار ملك اديسا الذى يقال إن المسيح قد أرسل إليه خطابا أرفق به صورته التى طبعت فى منشفة وجهه. ولذلك يرى مافروجورداتو أن قصة المنشفة هذه إنما تتناسب مع قصة النعمان حينما شفاه النبى اليشع من برصه بأن جعله يستحم فى الماء ثم يجفف جسده بمنشفة معينة، فما أن أفعل ذلك حتى شفى..

(انظر مافروجورداتو ص ٣٤، ٣٥ من المقدمة. وانظر كذلك «هسلك» فهو يشير إلى ذلك الأثر المسيحى فى كتابه «المسيحية والاسلام» جـ ١ ص ٣٧. وكذلك أشار ابن حوقل فى كتابه «المسالك والمماليك» إلى ذلك الأثر المسيحى فى حديثه عن بلدة الرها. قال: «وكان بها منديل لعيسى ابن مريم، فخرج نقفور فى بعض خرجاته ونزل بهم وحاصرهم وطالبهم به فسلموه إليه على هدنة وافقوه على مدتها. (المسالك والممالك، جـ ١ ص ٢٢٦، ط ليدن سنة ١٩٣٨)..

بكل ذلك، ولكن هذه المعتقدات التى كنت أومن بها قبل أن اهتدى إلى النور المقدس قد أصبحت أراها ظلمات تستحق أن تمحى. والآن بعد أن أراد الله فى عليائه الىّ الخير ـ فنجانى من براثن وحش خبيث، ورآنى استحق الحياة من جديد، طرحت جانبا تلك الأقاصيص والخزعبلات.. وكل من يؤمن بهذه الخرافات فجزاؤه العقاب، ولكن من يؤمن بالاله الأعلى رب كل شىء، ويؤمن بالسيد المسيح ـ ابن الله وكلمته ـ فإنه لن يهلك أبدا، وإنما تبقى روحه حية إلى الأبد»[1]. قال ذلك وأخبرها أنه سيرحل إلى رومانيا إذ أن نفسه قد تشبعت بالدين المسيحى، وأنها إذا هى شاءت اهتدت معه ورحلت إلى رومانيا، وإلا بقيت فى بلاد الإسلام تنتظر جزاء إيمانها بالخرافات.

عندئذ تأثرت الأم بحديث ابنها وقررت أن ترحل معه إلى رومانيا. وتركت الأم وابنها وحاشيتهما أرض سوريا ورحلوا إلى «قبادوقيا». وهناك استقبل الابن زوجته فقبلها واحتضن طفله ولسانه ينطق بمشاعره إذ يقول له: «متى تنشر جناحيك يا نسرى الجميل فتخضع الخارجين وتقضى على المحتالين»[2].

وكبر الطفل ديجنيس وبلغ الثانية عشرة من عمره. وسرعان ما أحس بطاقة من الحيوية والشجاعة كانت تدفعه دائما لأعمال البطولة، فأراد أن يخرج إلى الأحراش ليصارع الوحوش المفترسة. وقد حذره أبوه من ذلك

(١) الملحمة، الأبيات ٧٩٧ ـ ٨٠٠، ٨٠٣ ـ ٨٠٥، ٨٠٨ ـ ٨٠٩، ٨٣٢.
(٢) الملحمة، البيت ٩٤٤.

خوفا عليه وقال له: «لا تحاول أن تقطف زهرتك الجميلة قبل أوانها»[1] عند ذلك رد عليه ديجنيس قائلا: «إذا كنت اعتمد على مشيئة الله خالق كل شيء، وإذا كانت تؤازرني صلوات أمي وأبي، فإنك سترى الأسد مقتولا بجانب الذئبين»[2].

ولقي ديجنيس الأسد وقتله وألقاه طريحا بجانب الذئبين اللذين كان قد قتلهما من قبل. وعند ذلك غمره والده وخاله ومن كان معهما بالقبلات، ثم ذهبوا جميعا إلى نبع بارد وغسلوا لديجنيس وجهه ويديه ورجليه، وأخذوا يشربون بعد ذلك من مياه النبع الجارية[3].

وسمع «أكريتس» برعاة الأغنام الموصوفين بالشجاعة، وعزم على مقابلتهم وإظهار شجاعته لهم حتى يخشوا صولته فيكفوا عن تهديد أمن الدولة[4]. وفيما هو سائر إليهم إذ قابل أحدهم يحمل قربة ماء فسأله عن أولئك الرعاة فأجابه الرجل: «وماذا تريد منهم أيها الشاب الطيب؟» فرد على ديجنيس قائلا: «إنني أريد أن أكون واحداً منهم»[5]..

---

(١) الملحمة، البيت ١٠٦٨.

(٢) الملحمة، الأبيات ١١٥١ ـ ١١٥٣.

(٣) من تقاليد الرومان أنهم كانوا يشربون من المياه التي يغتسل بها البطل حتى يقتسموا معه شجاعته. (انظر مافروجورداتو ص ٧٨).

(٤) الاسم اليوناني الذي يطلق على جماعة رعاة الأغنام هؤلاء هو: Apelaten وقد اختلف في معنى اللفظ، فالبعض يقول إنهم جماعة من الرعاة كانوا ينتقلون على حدود الدولة والبعض الآخر يصفهم بأنهم قطاع طرق. (انظر: Krumbacher: Geschicht der byzantinische Literature; 2 Auflage, München 1897, S. 832.

(٥) الملحمة، الأبيات ١٢٦٢ ـ ١٢٦٥.

عند ذلك قاده الرجل إليهم فإذا به أمام رئيسهم «فيلوبابوس» وهو يجلس فى مقعده الوثير ملتفا بجلود الحيوان. ولما عرض عليه ديجنيس أن يقبله واحدا منهم، أجابه الرجل بأنه يرحب به إذا هو استطاع أن يقوم بواجب الحراسة خمسة عشر يوما لا يتناول فيها طعاما ولا يذوق فيها طعم النوم. فرد عليه ديجنيس بأنه قد قام بتلك الأعباء وهو صغير وأنه يريد مهمة أشق، كمبارزة رجاله مثلا..

وخرج إليه رجال فيلوبابوس فغلبهم، وبعد ذلك نازل زعيمهم فغلبه كذلك. عند ذلك شهدوا له بالبطولة وصاروا يخشون سطوته..

ولم تكن مغامرات ديجنيس فى الحب تقل عن مغامراته الأخرى فى الجرأة والشجاعة، فبينما كان يمر ذات يوم ببيت القائد الذى كان يقع فى طريقه لمح ابنة القائد الجميلة من خلال النافذة فوقف يخاطبها. ورأته الفتاة بما هو عليه من جمال ورجولة فأغرمت به. وأخذ ديجنيس يخاطب الفتاة كلما مر ببيتها. وقد حذرته ذات مرة من سطوة والدها، ولكن العاطفة القوية لا تخشى شيئا، بخاصة إذا تدفقت من قلب بطل لا تقف فى سبيله العقبات. فما أن سمع تحذيرها حتى سخر منها وأخبرها أن رماح أبيها وسهامه لا يمكن أن تنفذ إلى قلبه. ثم رجاها أن تجود عليه بنظرة، فاقتربت من النافذة فإذا بنورها يملأ المكان، ولاح له وجهها كأنه صورة أبدعتها يد فنان. ثم ألقت إليه بخاتمها فالتقفه مسرورا وتواعدا على اللقاء فى الغد..

وفى السحر، وقبل أن يختفى القمر من السماء حمل ديجنيس قيثارته وذهب ليلقى فتاته. ولما وصل إلى نافذتها وجد النور مطفأ، فعزف على قيثارته حتى يوقظها فاستيقظت ونظرت إليه من النافذة تعنفه على جرأته،

فغضب لقولها ورد عليها: «أننى أدرك يا سيدتى النبيلة سر قلقك. إنك تخشين حدوث ما لا تحمد عقباه، ولكنك تجهلين شخصى وأعمالى. ولو أنك كنت على علم بذلك لكففت عن ذكر أبيك وأخوتك، وكيف أنهم سيلحقون بى الأذى ويلحق بك حينئذ الأسف. لقد حاربت وحدى جيوشا وهزمتها وانتصرت على أبطالها.. إن كل ما أود أن أسمعه منك هو ما إذا كنت تحبيننى وتودين متابعتى قبل أن تشرق الشمس. أما إذا كنت مغرمة برجل آخر فكفى عن تلك المعاذير»[1].

عند ذلك خلجت الفتاة وأفصحت له عن عاطفتها نحوه وأخبرته بأنها تريد أن تتبعه إلى حيث شاء. وسعد البطل بقولها ولكنه لمس منها الحيرة والرغبة فى التحلل من وعدها. وأراد أن يطمئنها فقال لها: «حبيبتى، إننى على علم بما تكابدين من حياة، أعنى تلك الثروة الطائلة التى يمتلكها أبوك والتى يسعى إليك النبلاء من أجلها. أما أنا يا عزيزتى فلا أهدف إلى ثورة ولا أسعى وراء شهرة، وإنما أنا غنى بجمالك. فمن اللحظة التى وقع فيها نظرى على عينيك السوداوين وأنت لم تفارقينى ساعة واحدة.. فتعالى معى يا عزيزتى، وأقسم لك أنك ستعيشين فى سعادة كاملة. ولسوف يسر والدك حينما يعلمان أى رجل كسباه لابنتهما»[2]. فردت عليه الفتاة قائلة: «إننى وأنا أترك بيتى وأخوتى ووالدى أضع ثقتى فيك، والله يشهد ما تعهدت به من أنك لن تغضبنى، وأنك ستتخذنى زوجة لك مدى الحياة»[3].

(١) الأبيات: ١٥٣٦ ـ ١٥٤٢، ١٥٤٩ ـ ١٥٥٢، ١٥٥٤ ـ ١٥٥٥.
(٢) الأبيات: ١٦١٣ـ ١٦١٩، ١٦٢٦، ١٦٢٩ ـ ١٦٣١.
(٣) الأبيات: ١٦٤٩ ـ ١٦٥٢.

قالت ذلك وبسطت إليه يديها فالتقفها وهو راكب فرسه وحملها معه. ولكنه قبل أن يرحل بها هتف بأعلى صوته قائلا: «باركنى أنا وابنتك يا سيدى الوالد، ثم اشكر الله أن يكون مثلى زوجا لابنتك»[1]. ثم ولى بفرسه مسرعا.

واستيقظ القائد وزوجته وكل من فى البيت على صوت هتافه. وأبصر القائد خيالهما على بعد فصرخ بأعلى صوته: «لقد فقدت نور حياتى»[2]. وصرخت الأم وخرجت الأخوة تتعجب من ذلك الجرىء الذى اختطف أختهم.

وأسرع الجميع بإرسال جيش وراء ديجنيس. واقترب منه الجيش وهو بالقرب من شجرة، فوضع محبوبته فى أعلى الشجرة واستعد للقتال. وفى ساعات قليلة كان الجيش كله مضرجا بدمه. وبعد قليل كان القائد والأخوة قد لحقوا بالجيش فحذرته الفتاة من أن يتصدى لهم. فما أن اقتربوا من ديجنيس ووقعت عين القائد عليه حتى عرفه. حينئذ ألقى القائد سلاحه وقبل ديجنيس وابنته وهنأهما، وطلب من ديجنيس أن يرجع معه إلى قصره حيث يعلن على الملأ نبأ خطبة ابنته، وحيث يحتفلون بالزفاف.

واستقر ديجنيس مع زوجته على الحدود ليقوم بحمايتها من المغيرين ومن الخارجين على الدولة. وكان يقيم هو وزوجته فى خيمة، فى حين كان رجاله يعيشون فى خيام بعيدة عنهما. ولم يكتف ديجنيس بصد غارات

---

(١) البيتان: ١٦٧٣، ١٦٧٤.

(٢) البيت ١٦٧٩.

المغيرين، وإنما استولى كذلك على بابليون وطرطوس وغير ذلك من الجهات التى كان يسكنها السود المخيفون. وحينما سمع الامبرطور «بازل»[1] بذلك النصر أرسل إلى ديجنيس خطابا يطلب فيه مقابلته لكى يكافئه على أعماله. وقد رد عليه ديجنيس بخطاب آخر يعلن فيه استعداده لخدمة الملك والامبراطورية، ولكنه يأسف لعدم تمكنه من مقابلته، لأنه يخشى أن يسمع ما لا يرضاه من رجال قصره، وحينئذ لن يتوانى عن قتلهم.. وقد أخبر الامبراطور بأنه سيرحل إلى شاطىء الفرات، وأنه سينتظره هناك. وركب الامبراطور إليه وباركه ووعده بأن يرد إليه أملاك جده[2] التى كانت قد انتزعت منه. ثم عينه حاكما رسميا على حدود الامبراطورية البيزنطية.

ولما كان الشباب كثيرا ما يملأ الإنسان بالغرور فيورطه، فإن بطلنا قد تورط فى نفس الخطأ. وهو يعترف بذلك نادما حينما باح بسره لأحد سكان قبادوقيا قائلا له: «لقد رغبت فى أن افترق عن والدى وأن أعيش بمفردى عند الحدود. وخرجت ذات يوم للتسرية عن نفسى وتوغلت فى سوريا وكنت حينئذ فى الخامسة عشرة من عمرى حتى وصلت سهلا من السهول العربية. ثم أمعنت فى التوغل وأنا راكب فرسى وماسك برمحى. ثم شعرت بعطش شديد فأخذت أبحث عن ماء. وعلى بعد لمحت شجرة عند

(١) الراجح أنه يشير إلى بازل الثانى (٩٦٠ ـ ١٠٢٥م) الذى اشتهر بإخضاع الثائرين على الحدود.

(٢) يعنى جده لأمه وهو دوكاس الذى خطف موصور العربى ابنته وتزوجها. وفى هذا ما يشير إلى ما ذكره أخوة إيرين للأمير العربى فى أول الملحمة، من أن أباهم كان قد نفى. وسنشير إلى ذلك مرة أخرى فى تحقيقنا لحوادث الملحمة.

مستنقع كبير فأسرعت إليها بفرسى. ووجدتنى لم أخطىء، إذ كانت هناك نخلة بجانب ينبوع ماء. وما أن اقتربت من الماء لأروى ظمئى حتى سمعت أنينا ينبعث من فتاة جميلة. عند ذاك انتابنى الذعر واقشعر بدنى، إذ أعتقدت أننى أمام جنية، فقد كان المكان مهجورا، كثر فيه العشب. فانتزعت سلاحى، ولكن الفتاة حينما رأتنى انتفضت وهبت واقفة ولفت نفسها فى خجل برادئها ثم أخذت تمسح دموعها وحدثتنى قائلة: من أين جئت وإلى أين تسير وحيدا أيها الرجل الطيب؟ يبدو أن الله قد هداك إلى هنا لكى تنقذنى من شقوتى فى هذه الصحراء»[1]. عند ذلك طمأنها ديجنيس حتى هدأ روعها. ثم أخذت الفتاة تحكى له قصتها فقالت: «لابد أنك سمعت هن «هابلورابدس» أمير الجميع. إنه أبى، وأمى «ميلانتيا»، ونحن من ميافارقين[2]. وقد حدث أننى وقعت فى حب رومانى كان أبى قد أسره مدة ثلاث سنين، وكان يدعى أنه ابن قائد شهير. وذات مرة كان أبى غائبا فى الحروب كما هى عادته فتمكنت من أن أحل قيده وأخرجه من السجن وأعطيه الخيل واجعله يحكم سوريا. وازداد حبه لى.. وقررنا أن نهرب ذات يوم إلى رومانيا، إذ كان يخشى رجوع أبى. وبعد أن أقسم لى بأغلظ الأيمان أنه سيتزوجنى أخذت أتحين الفرصة لسلب ثروة كبيرة من أهلى حتى أهرب معه. ومرضت أمى فى ذلك الوقت وأشرفت على الموت، فسلبت أشياء ثمينة، وخرجت مع صديقى الخائن حتى وصلنا إلى هذا النبع الذى تراه ومكثنا فى هذا المكان ثلاثة أيام وثلاث ليال. وبينما نحن

---

(١) الأبيات ٢١٩٣ ـ ٢٢٢٠.

(٢) ميافارقين إحدى بلدان الحدود التى عانت من الحروب الكثيرة بين العرب والروم فى عصر سيف الدولة.

نائمان فى الليلة الثالثة إذ استيقظ صديقى خفية وأعد الخيل وأخذ ما كنت قد أحضرته معى من أشياء ثمينة. فاستيقظت مذعورة من نومى وأخذت أعد نفسى كذلك للرحيل معه، وكنت قد خرجت متخفية فى ثياب رجل. وإذا بصديقى يتمطى جوادا ويمسك بعنان الجواد الآخر ويولى مسرعا. وفوجئت بما حدث وخرجت وراءه أستغيث به»[1].

وكانت الفتاة تبكى وهى تقص قصتها، وإذا بجماعة من الأعراب يبلغ عددهم المائة وكلهم مدججون بالسلاح يقتحمون جلستهما كما يقتحم الأسد على فريسته. وفى سرعة خاطفة امتطى ديجنيس صهوة جواده. وهاجمهم وقتلهم جميعا. عند ذلك تعجبت الفتاة من شجاعته وتأكدت أن الشاب الذى يقف بجوارها هو بطل الحدود. ثم إنه حملها على فرسه ورحل بها إلى سوريا.

ولم يستطع ديجنيس أن يقاوم إغراء الفتاة طوال الرحلة، فارتكب معها إثما فى غفلة من نسيانه لزوجته. ولما علم أنه قد زاد من متاعبها بما ارتكبه معها حاول أن يخفف عنها، فراح يبحث عن صديقها حتى وجده، وجاء به إليها وأمره أن يأخذ الفتاة ويتزوج منها زواجا شرعيا ويرد إليها ثروتها، فإن هو أبى محا أثره من الوجود. ولم ينس ديجنيس أن يعرفه بشخصه قبل أن يرحل عنهما.

---

(١) الأبيات ٢٢٣٨ ـ ٢٢٤٩، ٢٢٥٢ ـ ٢٢٦٢، ٢٢٦٧، ٢٢٨٣ـ ٢٢٨٤، ٢٢٨٩ ـ ٢٢٩٨..

وأخذ ضمير ديجنيس يعذبه على ما أرتكب من إثم وخيانة لزوجته، ورجع إليها وآثار الخزى والندم بادية عليه. وأدركت الزوجة الأمر، واعترف ديجنيس لها، ثم قرر معها أن يتركا المكان الذى كانا يعيشان فيه حتى لا يقابل الفتاة العربية مرة أخرى فتذكره بفعلته معها.

وفى ذلك المكان الجديد بدأ ديجنيس وزوجته يستمتعان بما فى الحياة من جمال: جمال الربيع، وجمال الحب، وجمال الوحدة. ثم إنهما اختارا مرجا من المروج الخضراء ونصبا خيمتهما بجواره. وذات يوم أحست زوجته العطش، فذهبت لترتوى من نبع مجاور لهما. ولم تكد تقترب من النبع حتى شق جوف الماء ثعبان لم يلبث أن تحول إلى رجل مخادع، ولكنها لم تخدع به. ولما حاول الاقتراب منها صرخت تنادى زوجها، فأدركها لتوه وقتل الوحش المفترس الذى أراد أن يفسد جمال حياتهما. وكما قتل الثعبان قتل غيره من الوحوش المفترسة حتى أصبحت الوحوش تهاب ذلك المكان ولم تعد تقترب منه.

ثم ظهرر نشاط قطاع الطرق على الحدود وعلى رأسهم الثلاثة المشاغبون: فيليباوس وكيناموس وايوناكس. فبينما كان هؤلاء يستطلعون الأمور على بعد ميل من خيمة ديجنيس إذا بهم يسمعون صوت غناء زوجة ديجنيس يدوى فى الفضاء، فى حين كان ديجنيس يعزف لها على قيثارته. عند ذلك ذهب أحدهم يستطلع الأمر فرأى الزوجة وما هى عليه من جمال، فذهب وأخبر رفيقيه بالأمر وقرروا اختطافها. ولم يكونوا على علم بحقيقة زوجها. عند ذلك أرسلوا جماعة من رجالهم يبلغ عددهم خمسة وأربعين ليفاجئوا ديجنيس ويختطفوا الزوجة. ولكن ديجنيس ـ الذى كان

على استعداد دائم لصد غارات المشاغبين على الحدود ـ قابلهم بمفرده وقتلهم عن آخرهم، وألقى بجثثهم بعيدا فى الصحراء. ولما طال غياب الجماعة عن فيليباوس ورجاله رحلوا بأنفسهم ليستطلعوا الأمر فوجدوا ديجنيس يجلس فى هدوء مع زوجته وما من أثر للقتال عليه، إذ كان قد اغتسل فى نهر الفرات بعد المعركة، ولما سألوه عن جماعة يبلغ عددهم خمسة وأربعون كانوا يتجولون بالقرب منه، أشار إلى جثث القتلى. وأدرك المغيرون عندئذ ما حدث، ونظر بعضهم إلى بعض متسائلين عما إذا كان الشخص الذى يخاطبهم هو حامى الحدود. ثم طلبوا من ديجنيس أن يدخل معهم فى مبارزات فردية وخذلوا جميعا أمامه. ولما رأوا ألا سبيل إلى استعمال القوة معه حاولوا التفاهم معه سليما. فأخبروه أنهم سيكونون له اتباعا إذا هو انضم لصحبتهم. وهنا ابتسم ديجنيس وأجاب متحدثهم فى لهجة ساخرة حازمة قائلا: «إذا كنت قد ختمت حياتك بهذه التوبة وهذا التذلل يا فيليباوس فقم واصطحب أصدقاءك وارحل إلى حيث تريد، فإنك لن تغيب عن عينى حيثما كنت. أما إذا كنت تسعى إلى أن انضم إلى رفقتك فإننى أخبرك بأننى غير راغب فى هذا. إننى أريد أن أعيش وحيدا، وليس الوصول إلى الرئاسة من أطماعى. فأحكم أنت بنفسك، وليساعد بعضكم بعضا، وقم بغاراتك ما لقيت ذلك ميسرا..! فإذا أردت محاربتى بعد ذلك فاختر نخبة أخرى من الرجال لم يسبق لهم تجربتى لمقاتلتى، إذ لم يعمل معك من سبق أن اشتبك معى فى قتال»[1]..

وسعد فيليباوس وأصحابه بأن بطل الحدود قد تركهم أحرارا ثم أنهم

(١) انظر الملحمة: الأبيات ٢٧٤٥ ـ ٢٧٥٥.

انتحوا ناحية وأخذوا يتداولون فيما بينهم. وسلم بعضهم بأن ديجنيس يمتلك قوة غير عادية، فلابد أنه ساحر. وأنه يعمل بالتعاون مع قوى خفية[1]. ولكن فيليباوس لم يسلم معهم بذلك، وعزم على مجالدته حتى يهزمه. وكانت لفيليبابوس قرية تدعى «مكسيمو»[2] تشتهر بالفروسية فأراد

(١) يرى مافروجورداتوا أن السحر والإيمان بالأرواح كانا منتشرين فى الدولة الرومانية الشرقية فى القرن التاسع الميلادى، وكان لهما تأثيرهما فى خيال الشعب (انظر مافروجورداتو ص ١٨٢). ونحن نرى أن قصة المشاغبين الثلاثة قد تأثرت بقصة شبيهة لها كانت تسيطر على خيال الشعب البيزنطى وتتصل بعقائد هذا الشعب الروحية. وتقول هذه القصة ـ كما أوردها «بيورى» ـ على نحو ما كان الشعب يؤمن بها: «ان ثلاثة من المشاغبين كانوا يهددون أمن الدولة فى عهد الامبراطور «تيوفيل» (٨٢٩ ـ ٨٤٢). وقد عجز الامبراطور عن قهرهم فاستعان بسحر يوحنا النحوى الذى كان يشتهر بأعمال السحر فى ذلك الوقت. وقد أشار إليه يوحنا أن يصنع ثلاثة تماثيل ويأمر بوضعها فى «الهبدروم» (ميدان اللعب الكبير فى الامبراطورية البيزنطية) بين التماثيل الأخرى ويأمر ثلاثة من أقوياء عصره أن يضربوا التماثيل بالفؤوس، فى الوقت الذى يتلو فيه يوحنا بعض التراتيل السحرية. وفعل الأمبراطور ذلك وضربت التماثيل بالفؤوس وتحطم اثنان منهم وتهشم الثالث. وفى الصباح عثر على اثنين من المشاغبين قتيلين والثالث مجروحا. ولم يكن ذلك إلا بفضل سحر يوحنا كما كان الشعب يعتقد. (انظر:

(Bury: History of the Roman Empire; London 1912, P. 443.

(٢) تذكر الملحمة أن مكسيمو هذه من نسل نساء الأمازون اللاتى أحضرهن الاسكندر معه من الهند (أنظر الملحمة الأبيات: ٢٨٤٧ ـ ٢٨٤٩). وقد ورد ذكر هؤلاء النسوة فى الاسطورة الاغريقية على أنهن يمثلن شعبا نسائيا محاربا كان يسكن آسيا. ولم يكن هؤلاء النسوة يتصلن بالرجال سوى مرة فى العام. وقد حاولن عن طريق حروبهن أن يتخذن «أتيكا» (شبه جزيرة فى بلاد اليونان تقع فى الجنوب الشرقى منها) وطنا لهن. (انظر:

Der neue Brockhaus; Wiesbaden 1960, B. 1, SS. 64-5.

أن يستعين بها وبرجالها لقهر ديجنيس دون أن يطلعها على حقيقة ما حدث حتى لا تسخر منه وتأبى مساعدته..

واستعدت مكسيمو لمساعدته، ووضعت فرقتها وعلى رأسها «مليمتزس»[1] تحت امرته، كما أنها رحلت بنفسها معه. وقد اتفقوا فيما بينهم على أن يعبر «فيليبابوس» النهر مع اثنين من رجاله، فى حين تنتظر مكسيمو مع رجالها على الشاطىء الآخر أشارة منه..

وقد حدث أن كان ديجنيس ينتظر على صخرة عالية ممتطيا صهوه جواده ـ إذ كان يتوقع هجوما منهم ـ فرأى بحدة نظره فيليبابوس مع مليمتزس يشيران إليه ويحاولان أن يختفيا عن نظره. فما أن لمح مليمتزس ديجنيس بمفرده حتى تعجب من فيليبابوس لطلبه معونة مكسيمو ورجالها، وأخبره بأنه لو استدعى سيدته لمساعدته على مبارزة فارس واحد، لم تثق فى شجاعته. وفى لحظة ظهر مليمزس أمام ديجنيس. وقبل أن يتحرك الأخير نحوه رماه مليمتزس بسهم لم يصبه. وأعقبه ديجنيس بضربة القته على الأرض صريعا. وأراد فيلباوس أن يلحق بالمعركة ويضرب ديجنيس من الخلف. واستطاع فى الواقع أن يضرب أرجل فرسه، ثم ولى مسرعا. عند ذلك صاح به ديجنيس قائلا: «لماذا تفر؟ ابق فى مكانك وقابلنى وجها لوجه إن كنت جنديا حقا، ولا تقضمنى هكذا خلسة كالجرو الأرعن»[2]

(١) يرى مافروجورداتو أن هذا الأسم يشير إلى جماعة كانت تسمى Melemenji وهم من الهراطقة، وكانوا يسكنون أدنة وطرسوس. (أنظر: مافروجورداتو ص ١٨٩).

(٢) الأبيات ٢٩٧٥ ـ ٢٩٧٨.

ولكن فيليبابوس استمر فى عدوه حتى عبر النهر قاصدا مكسيمو وجماعتها الذين كانوا يقفون منتظرين إشارة منه. وأراد ديجنيس أن يلحق به، ولكنه لمح كثرة الرجال على الشاطىء الآخر واستعدادهم التام للقتال. عند ذلك رحل مسرعا كى يخفى زوجته فى مكان بعيد، ويستبدل بفرسه فرسا آخر، ويحمل سلاحه. ثم أنه عاد ليعبر النهر إليهم. وفى ذلك الوقت التفتت مكسيمو إلى فيليبابوس وسألته عن البطل الذى جاءوا لقتاله، فأجابها بأنه هو ذلك الذى يعبر النهر إليهم. فسألته مرة أخرى: «وأين جنوده؟» فأجاب: «إنه ياسيدتى فى غير حاجة إلى من يعاونه، لأنه يثق فى شجاعته التى لا تقهر» فقالت: «وهل أتكلف أنا ورجالى الحضور من أجل رجل واحد؟ سأذهب لألاقيه بمفردى معتمدة على عون الله، وسآتيك برأسه».. قالت ذلك ودفعت بفرسها فى النهر[1].

عند ذلك صاح ديجنيس بها وقال لها: «لا تعبرى النهر يا مكسيمو! إن الرجال هم الذين يذهبون إلى النساء. سأحضر أنا إليك كما يقضى بذلك الواجب»[2].

ولم تمهله مكسيو حتى يتم كلامه ورمته بسهم لم يصبه. ولم يرض ديجنيس أن يقذفها بسهامه، واكتفى بأن كسر سيفها وأصاب فرسها، فوقعت على الأرض وهى تصرخ.

«لا تقتلنى أيها الفتى الفارس»[3].

---

(١) الأبيات ٣٠٢٠ ـ ٣٠٢٣، ٣٠٢٦ـ ٣٠٢٩.

(٢) الأبيات ٣٠٣٠ ـ ٣٠٣٢.

(٣) البيت ٣٠٥٢.

واحترم ديجنيس نداءها، وأشفق على جمالها، وتركها. وأراد الآخرون طعنه من الخلف فأدركهم وانتصر عليهم فولوا هاربين. ثم أتته مكسيمو تسلم عليه وتحيى شجاعته ولكنها لم ترض أن تنسحب مخذولة، فأتفقت معه على العودة إلى المبارزة. ووعدها ديجنيس بالانتصار وتقابلا وتبارزا وغلبها. ولم يكن فى وسع مكسيمو سوى أن تسلم إليه نفسها وهى تقول له: «سيدى.. أصفح عنى.. لقد أخطأت التقدير. ولنكن صديقين إذا كنت لا تستنكف ذلك. إننى ما زلت عذراء، لم يمسنى بشر، فاتخذ منى زوجة لك ورفيقة ضد أعدائك[1]..

فأجابها ديجنيس: «اننى لن أقتلك يا مكسيمو، ولكننى لن أتخذ منك زوجة. اننى زوج وأحب زوجتى، ولن أتهاون فى حق هذا الحب»[2]. ثم إنه ودعها وانصرف وهو يخشى أن يقع فى شراكها..

وعاد إلى زوجته وأخذها من الكهف الذى كانت تختبىء فيه، ونزلا مرة أخرى إلى شاطىء الفرات لكى يستمتعا بجمال الروحانى بعد ذلك النضال الطويل. ثم انه ضرب خيمته على شاطىء النهر الذى أحب المقام بجانبه..

ثم قرر ديجنيس أن يبنى قصره على شاطىء الفرات وأن يجعل الحدائق تحيط بهذا القصر فتم له ما أراد. وكانت تنساب حول القصر جداول تنبع من النهر الخالد، نهر الفرات، الذى قضى بجانبه محافظا على أمنه. وفى هذا القصر، وبجانب الفرات، عاش الزوجان بين أصداء من الموسيقى متنوعة، مصدرها خرير المياه وغناء الطيور وهسهسة الطبيعة الخافتة. ولم يكد

(١) الأبيات ٣٢٢٧ ـ ٣٢٢٩.
(٢) الأبيات ٣٢٣٢ ـ ٣٢٣٥.

هذا القصر يتم وتستقر لديجنيس السيادة فى تلك المنطقة حتى أخذت الوفود من أقرباء أبيه تفد إليه من «آمد» لزيارته، فكانت تمضى فى أحضان تلك الطبيعة الساحرة أياما بين الصيد والتجول..

ثم بلغت ديجنيس أنباء مرض أبيه الأمير موصور الذى كان قد استقر فى قبادوقيا، فرحل إليه مسرعا وبقى بجانبه حتى صعدت أنفاسه الأخيرة. وقد حمل جثته معه لكى يدفنها فى أرض الفرات. ثم أخذ معه أمه ـ ابنة دوكاس ـ التى لم تلبث أن لحقت بأبيه ولم تطق الحياة بديجينيس بعد ذلك كثيراً، فقد فارق الحياة وهو شاب فى الثلاثين دون أن يترك وراءه ولداً يخلفه.

لقد حقق بدجنيس أملا عريضا كان يراوده أبدا ويراود من سبقه من الأبطال. هذا الأمل هو نشر الهدوء والطمأنينة فى منطقة الفرات التى لم تنعم بالهدوء والسلام قرونا طويلة. على أن هذه المنطقة لم تتخلص على يديه من الحروب فحسب، ولكنها تخلصت كذلك من المشاغبين الذين طابت لهم حياة السلب والنهب، فضلا عن الوحوش المفترسة التى كانت ترتع فى مروجها.

لقد شيد ديجنيس قصر السلام على نهر السلام. وما أن تحقق حلمه حتى مضى وترك قصره علما للسلام على النهر الخالد.

* * *

الفصل الثانى

الملحمة..
دراسة وتحليل

ظلت ملحمة «ديجنيس أكريتس» مجهولة للباحثين حتى منتصف القرن التاسع عشر. ففى ذلك الوقت بدأ دارسو تاريخ العصور الوسطى بوجه عام، والفترة البيزنطية بوجه خاص، يشتغلون بالتراث الأدبى البيزنطى الذى كان قد بدأ يظهر لأول مرة. وكان أول ما نشر من ذلك التراث مجموعة من الأغنيات أطلق عليها اسم «الدائرة الأكريتية»[1]. وفى عام ١٨٧٥ عثر على مخطوطة فى «ترابيزون» تتضمن ملحمة ديجنيس أكريتس. وقد قام بنشر هذه الملحمة لأول مرة «ساتاس» و«ليجران»[2]. وبعد ذلك ظهرت لهذه الملحمة مخطوطات ست:

المخطوط الأولى تنسب إلى «أندروس» فى اليونان وتحتفظ بها المكتبة

---

(١) أول من أطلق هذا الاسم على تلك الأغنيات ساتاس وليجران فى مقدمتهما لملحمة ديجنيس اكريتس. والأغنيات فى مجملها تمجد بطل الحدود (لفظة أكريتس Akpitoy معناها الحدود). وسنشير إلى هذه الأغنيات فى الكلام عن أصل الملحمة انظر:

Sathas et Legrand: Les Exploits de Digenis Akritas; Epopée Byzantine du Dixéme Siécle, Paris 1875.

(٢) Ibid. P. XIIX.

الوطنية فى أثينا. وقد تبين أن هذه المخطوطة أتم فى نصوصها من مخطوطة ترابيزون.

والمخطوطة الثانية عثر عليها فى دير يونانى فى «جروتافيرانا» بالقرب من «فرسكانى» سنة ١٨٧٩..

والمخطوطة الثالثة عثر عليها ناقصة فى مكتبة الأسكوريال بمدريد. والمخطوطة الرابعة تحمل اسم كاتبها الذى فرغ من كتابتها سنة ١٦٧٠م وتحتفظ بها جامعة أكسفورد.

والمخطوطة الخامسة ناقصة تماما، وقد عثر عليها فى روسيا. وكل هذه المخطوطات قد كتبت شعرا.

أما المخطوطة السادسة والأخيرة فقد كتبت فيها قصة الملحمة نثرا، وقد عثر عليها فى أندروس كذلك، وتحتفظ بها مكتبة قسم الفولكلور فى جامعة «سالونيكا»[1].

ومنذ أن نشرت ملحمة ديجنيس أخذت جهود الباحثين تنصرف إليها. وتعد الدراسة التى قام بها ساتاس وليجران لهذه الملحمة أول مرحلة فى ذلك الطريق. وكان آخر ما ظهر من أبحاث حول هذه الملحمة ـ فيما نعلم ـ هو البحث الذى كتبه الأستاذ «كرياكيدس» والذى ألقاه المؤتمر البيزنطى الذى عقد فى مدينة ميونيخ بألمانيا سنة ١٩٥٧. وخلال هذه الفترة ظهرت أبحاث

(١) اقرأ تفصيلات أكثر عن هذه المخطوطات فى كتاب موفروجوراداتو:
Digenes Akrites, P. XV- XXIX.

كثيرة مسهبة حول الملحمة. وربما لم ينل أثر من آثار الآداب البيزنطية من الاهتمام قدر ما نالته هذه الملحمة. والسبب الأول والأخير لهذا، يرجع إلى ظهور الروح الإسلامى واضحا جليا إلى جنب مع الروح المسيحى فى هذه الملحمة، الأمر الذى لفت أنظار الباحثين وأثار اهتمامهم.

والمخطوطة التى حققها ونشرها مافروجورداتو هى مخطوطة جروتافيرنا، وتعد أقدم المخطوطات، ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الرابع عشر الميلادى. وتتميز هذه المخطوطة عن غيرها من المخطوطات بأن الطابع الإسلامى فيها واضح ومعرفة الكاتب بالمعجزات التى يؤمن بها المسلمون أوضح وأكبر. ثم إن لغة هذه المخطوطة ـ فيما يرى الباحث ـ ترجح أنها «ألفت» فيما بين القرنين العاشر والرابع عشر الميلادى[1].

ويمكن تلخيص المشكلات التى أثارتها هذه الملحمة للبحث فى نقاط ثلاث: أولا ـ صلة الملحمة بالتاريخ، وثانيا أصل الروح الإسلامى العربى الذى يظهر فى الملحمة بشكل واضح، وعلى وجه التحديد فى الجزء الأول منها، وثالثا الصورة الأصلية التى افترض الباحثون أن الملحمة قد ظهرت فيها قبل أن يتألف منها هذا العمل الأدبى، ويظهر فى صورته الأخيرة. وسنعرض الآن للآراء التى تتصل بهذه القضايا.

(أ) الأصل الأول لملحمة ديجنيس أكريتس:

هناك فكرة عامة فى أصل الملاحم يسترشد بها الباحث دائما فى البحث

(١) انظر مافروجورداتو ص ١٥، ١٦ من المقدمة.

عن أصول الملحمة التى يدرسها والتى تستوى بين يديه فى صورتها الكاملة، وهى أن الملحمة ترتكز دائما على بعض الأناشيد والأغنيات الشعبية الصغيرة التى تتصل ببعض الحوادث الكبرى المهمة فى حياة الشعب أو التى مازال لها صدى فى هذه الحياة.

وعلى أساس من هذه الفكرة ـ فيما يبدو ـ بحث ساتاس وليجران عن الأناشيد التى تتغنى ببعض أحداث الملحمة، وقالا بضرورة دراستها لصلتها القوية بالملحمة. وقد قاما من أجل ذلك بترجمة بعض هذه الأناشيد فى مقدمتهما لدراسة الملحمة[1].

وقد تداول البحث آخرون غير ساتاس وليجران. ومن الباحثين من وصل إلى حد الجزم بأثر هذه الأناشيد فى الملحمة، ومنهم من وقف به التحرز دون ذلك، ومنهم من نفى على وجه الإطلاق أن يكون لتلك الأناشيد أى أثر فى الملحمة.

فالأستاذ جريجوار يشارك ساتاس وليجران الرأى فى صلة الأناشيد بالملحمة، ولكنه لا يصل مثلهما إلى حد الجزم بتأثيرها فيها.

أما الأستاذ كرياكيدس فقد رأى أن الملحمة قد تأثرت بتلك الأناشيد، وأن كاتب الملحمة قد وجد فيها مادة ثمينة لكتابته.

وإذا كانت الملحمة قد أفقدت تلك الأناشيد التى استمدت منها مادتها رونقها الخاص وأضافتها إلى بنية الملحمة على نحو جاف ـ فلأن الشاعر كان مرتبطا ببعض الحوادث التاريخية التى صورها فى الملحمة.

---

(١) Gregoire; Byzantion, 1932 - VII, 290.

(٢) Gregoire; Byzantion, 1932 - VII, 290.

وعلى العكس من كرياكيدس رأى مافروجورداتو أنه لا يمكن القطع بأثر تلك الأناشيد فى الملحمة، لسببين:

أولهما: أن هذه الأناشيد قد جمع أكثرها فى العصور المتأخرة، ومن العسير على الباحث أن يقرر أنها كانت أسبق من الملحمة فى التأليف.

ثانيهما: أن ديجنيس ليس البطل الوحيد الذى أشادت به الأناشيد فقد أشادت إلى جانبه بأبطال آخرين منهم «أرموريوبولس» و «أندرونيكوس» و«بورفوريس» وغيرهم.

وسواء استفاد مؤلف الملحمة من تلك الأناشيد أم لم يستفد فإن الكاتب يريد أنه لا داعى لأن نقرن بين الأناشيد والملحمة إذ أن هذه وتلك تعدان مظهرين من مظاهر تطور القصص البطولى. فالفرق بين القصة الشعرية التى كان يتغنى بها وبين الملحمة لايعد فرقا فى مراحل التأليف أو فرقا فى طريقة معالجة المادة الواحدة التى تستخدم مرة فى خلق أناشيد يهتف بها الناس فى الطرقات ومرة أخرى فى خلق أدبى صنع ليتلى فى حفل من الناس أو للقراءة الخاصة. إن الفرق بين هذين النوعين إنما يتمثل بين مستويات مختلفة من الرغبة أكثر من تمثله فى أى شيء آخر[1].

وينبغى الآن أن نشير فى إيجاز إلى تلك الأناشيد حتى نتأكد من مدى صحة تلك الآراء..

* * *

(١) Mavrogordato: Op. cit., P. XXVIII.

١ـ ديجنيس وفتاته:

تحكى هذه الأنشودة أن ثلاثة من الأشراف اجتمعوا للأكل والشراب. ولما لم يكن لديهم موضوع يتحدثون فيه فقد اتفقوا فيما بينهم على أن يتحدثوا ـ كل فى دوره ـ عن السيف والرمح والقصور. وجاء دور ثالثهم فأخذ يتحدث عن أجمل القصور التى شاهدها، وعن الفتاة التى رآها فى أحدها. وتصادف أن كان ديجنيس يسير بجانب المكان الذى كانوا يتسامرون فيه، فسمع ما حكاه الأخير عن الفتاة التى رآها فيما أعجبه من القصور، فدخل إليهم فقاموا له واقفين ودعوه للأكل والشرب معهم. لكنه رفض ذلك وطلب من الشريف الثالث أن يعيـد عليه ما حكاه. فلما تأكد من أن ما سمعه كان صحيحا ذهب إلى صديقه «خليبابوس» وطلب منه أن يخطب له تلك الفتاة. ومضى خليبابوس لهذا الغرض، ولكن أم الفتاة رفضت أن تزوج ابنتها من ديجنيس لأن أمه عربية وأباه يهودى. أما الأب فلم يكن يعارض هذا الزواج. وعاد خليبابوس فأخبر صديقه بذلك. وغضب ديجنيس مما سمعه، وطلب من صديقه «خليبابوس» أن ينزل عن فرسه حتى يركب ويذهب لأخذ الفتاة إن لم يكن برضاء والديها فعنوة. عند ذلك أخذ «خليبابوس» يسدى إليه النصيحة فقال له: «انظر يا ديجنيس.. انتظر حتى أسدى لك النصيحة. اتخذ هذا الطريق، طريق الدروب فإنه يقودك إلى رابية تنتشر فيها أشجار الشوخ الجميلة التى يمتلكها بعض الأعراب فاجلس هناك واعزف على قيثارتك وغن ألحانك العذبة، وسوف تشاركك طيور السماء ألحانك. وعندما تسمع الفتاة صوتك ستفتح نافذتها وتطل منها. فإذا كنت شجاعا وجريئا فاخطفها واهرب بها». ونفذ ديجنيس خطة

خليبابوس وهرب بالفتاة وخرج أهلها فى أثره. فلما وصل إلى صخرة عالية أنزل فتاته. وإذا به يرى أفعى تخرج من بين الصخور تريد أن تلتهم الفتاة. فما أسرع ما استل سيفه وأجهز على الأفعى. وحينما أدركه من تبعه من أهل الفتاة أعد نفسه لملاقاتهم. وفجأة ظهر والد الفتاة على رأس خدمه وبسط يده لديجنيس يصافحه مباركا زواجه من ابنته[1].

٢ـ ولد أندرونيك:

وتحكى هذه الأنشودة أن العرب قاموا بغارة ضد أندرونيك وأسروا زوجته وهى حبلى فى الشهر التاسع. وقد وضعت الزوجة طفلها فى الأسر، وأخذت ترضعه اللبن وتطعمه فتات الخبز، كما أخذت زوجة الأمير تطعمه العسل وفتات الخبز. لقد كانت أمه تناديه: «أى ولد أندرونيك!»، وكانت زوجة الأمير تناديه: «أى بنى ابن الأمير».

وكبر الطفل وحمل السيف فى السنة الأولى من عمره والرمح فى الثانية. ثم كبر وذاع صيته، ولم يكن يخشى إنسانا لافوكاس ولا نقفور. وذات يوم امتطى صهوة جواده الأسود وسار به حتى وصل إلى الجبال وهناك التقى بجماعة من الأعراب حاولوا أسره، لكنه لم يخشهم وطلب منهم أن يقيدوا كتفيه، وأن يضعوا الحديد فى رجليه فإن ذلك لن يضيره. وصنعوا به ذلك، ولكنه فك القيود وولى مسرعا، وامتطى صهوة جواده. ولما رأته أمه قالت له: «إذا أردت أن تذهب إلى أبيك فسر فى الصحراء حتى تقابل خياما، فاترك الخيام كلها جانبا حتى تصل إلى خيمة سوداء فهذه

(١) Sathas et Legrand; op. cit., P. 54.

خيمة أبيك». وفعل الصبى ما أشارت عليه به أمه حتى وصل إلى الخيمة السوداء فوقف بجانبها يبحث عن بابها فلم يجد لها بابا. عند ذلك ألقى بسيفه فى الرمال وهتف بصوت مرتفع سمعه أندرونيك فخرج إليه، ولم يكن يعرف أنه ابنه. ولما سأله «من أنت؟» أجابه:

إذا أنت لم تقبل رجائى فلن تطأ قدماى الأرض بعد ذلك.

وإذا حملت سيفى استجرت بك

وإذا حملت سيفك حملت سيفى

وإذا حملت رمحى استجرت بك

وإذا حملت رمحك حملت رمحى

وطلب منه أندرونيك أن يحدثه عن أصله. وسرعان ما عرف الوالد ابنه، فقبله وقال له: «الآن قد صرنا بازين»[1].

* * *

٣- جولة مشئومة:

تزوجت «أيوديس» فى الغرابة بعيدا عن أمها وأخوتها التسعة.

ولقد كان ثمانية من أخوتها يعارضون ذلك الزواج، ولم يكن يحبذه سوى أخيهما التاسع قسطنطين. وكان هذا كثيرا ما يقول لأمه: «زوجى ابنتك فى البلاد الغربية يا أمى، البلاد الغربية التى أتجول بها، فربما وجدت

(١) Ibid., P. XLVII .

لديها فى النهاية راحة من عناء تجوالى. «وتزوجت الفتاة بعيدا ولم تعد الأم تسمع عنها شيئا.

وخرج قسطنطين للبحث عنها فقتل فى الطريق، واختفى الإثنان عن الأم. عند ذلك خرجت الأم تستصرخ الطبيعة علها تشفق عليها. وفى هذه الأثناء ظهر شبح قسطنطين لأخته فى غربتها وطلب منها أن ترجع إلى أمها. وفيما هما يتحدثان إذا بالفتاة تسمع الطيور تغنى أغنية حزينة، فقطعت حديثها مع أخيها ولفتت نظره إلى أغنية الطير الحزينة. عند ذلك قال قسطنطين: «دعيه يغنى ويطرب لأغنيته إنه طير أحمق». ثم إنه رجاها أن تجد فى الرحيل. ولما أخبرته أنها لن ترحل بدونه، قال لها أنه مجهد من كثرة التجوال، وأنه يريد أن يستريح قليلا، ثم كرر رجاءه إليها بالعودة.

ورحلت الفتاة حتى وصلت منزل أبيها فإذا به تشمله الكآبة والحزن. وطرقت الباب فإذا بأمها تهتف باسم صهرها وتطلب منه أن يفارقها إذا كان قد جلب لحياتها التعاسة. ثم عرفت الأم أخيرا ابنتها، وقصت عليها الابنة قصة أخيها قسطنطين، فانتابت الأم الحسرة واللوعة وماتت لتوها وماتت معها ابنتها[1].

هذه الأناشيد الثلاثة تعد أوضح الأناشيد صلة بالملحمة. فالشخصيات التى تتغنى بها هى نفس الشخصيات التى تغنت بها الملحمة. الأنشودة الأولى تتغنى بديجنيس وتحكى قصة اختطافه لفتاته. وهذه القصة ـ إذا استثنينا بدايتها ـ هى بعينها القصة التى روتها الملحمة. والاختلاف بين

(١) Ibid., P. XXL.

القصتين هو أن الأنشودة جعلت من حليبابوس ـ الذى يبدو أنه تحريف لاسم فيليبابوس ـ صديقا لديجنيس، فى حين جعلت منه الملحمة عدوا له.

أما الأنشودة الثانية فقد تغنت بولد أندرونيك. وهى تشير إلى حادثة أندرونيك دوكاس التاريخية، فهى تصور أندرونيك أسيرا لدى العرب، وتصور سبى العرب لزوجته التى ولدت ابنها البطل بينهم، هذا البطل الصغير الذى ما لبث أن كبر وخرج ليحرر أباه من الأسر: والأنشودة تعد ردا على ما صدر من أندرونيك من تركه لبلاده ولجوئه إلى العرب وإعلانه الإسلام. إنها تصوره عاجزا عن الرجوع إلى بلاده. أما ابنه قسطنطين الذى كان أكثر منه وطنية فإنه ـ حينما فضل الرجوع إلى بلاده على البقاء بأرض المسلمين ـ فقد أخذ على عاتقه أن يحرر أباه.

أما الأغنية الثالثة الحزينة فتروى بشكل آخر قصة موصور الأمير العربى الذى اختطف ابنة أندرونيك غصبا، والذى خرج فى إثره أخوة الفتاة وبينهم قسطنطين، لتخليص أختهم من الأسر.

ومن كل ذلك نرى أن هذه الأناشيد تتناول بعض حوادث الملحمة، وأن مؤلفها استطاع أن يصوغها أغنيات عذبة انتشرت فى نطاق واسع على ألسنة الشعب، بل إنها مازالت تنتشر بين أبناء الشعب اليونانى حتى اليوم[1].

ورغم هذه الملامح المتشابهة بين الملحمة والأناشيد التى ذكرناها فإنه مازال من الصعب القطع بأسبقية الأناشيد على الملحمة ـ أو العكس ـ

(١) Gregoire: Nouvelles chansons epiques des IX et X siécles; Byzantion, XIV, 35.

فليس هناك دليل يؤكد ذلك كما سبق أن أشار مافروجورداتو. ونتيجة ذلك مباشرة أنه ليس من السهل القول بتأثير هذه الأناشيد فى الملحمة..

* * *

(ب) صلة الملحمة بالتاريخ:

وقد لفت نظر الباحثين فى الملحمة أنها تتضمن أسماء وحوادث تاريخية. وبمضاهاة هذه الحوادث والشخوص بما يقابلها فى التاريخ تبين أن الملحمة تستند إلى أصل تاريخى موثوق به، بل لعل تلك الأحداث التاريخية الحقيقية التى تحكيها الملحمة كذلك كانت ـ بما لها من دلالات خاصة ـ عاملا من العوامل التى دفعت إلى تأليف الملحمة..

وأول من تحدث عن الأصل التاريخى للملحمة ساتاس وليجران. فقد لاحظنا أن الأسماء التى تذكرها الملحمة ترتبط ارتباطا تاريخيا، وتصنع سلسلة من الحوادث، متصلة الحلقات. هذه الأسماء هى «خريزوفيروجس» والد موصور الأمير العربى، وقرباس عمه، ثم أمبرون جده لأمه، ثم أمه بانثيا، ثم ابنة القائد الذى كان يحكم أقليم قبادوقيا، التى كانت من سلالة قسطنطين دوكاس..

أما البلدان والأجناد التى ذكرتها الملحمة فجلها يقع فى منطقة الثغور السورية، وكانت مثار النزاع دائما بين العرب والروم. ومن الأجناد التى ذكرت جند قبادوقيا وخرشنة، ومن البلدان تفريك وآمد..

أما الحوادث التاريخية التى تربط بين خريزوفيرجس والد الأمير العربى موصور وبين قرباص عمه، ثم تربط بين هذين وبين أمبرون جد الأمير

لأمه، ثم تربط بين هذا كله والقائد قسطنطين دوكاس، فهى تلك الحوادث التى وقعت على الحدود العربية البيزنطية فيما بين عام ٨٥٦ وعام ٨٦٩م. ففى هذه الفترة كانت الدولة البيزنطية مهددة بعدوين متحالفين هما البولصيون والعرب..

والبولصيون ينتسبون إلى زعيمهم بولص السمساطى[١]. وهم جماعة من الهراطقة فى رأى الدولة البيزنطية، إذ أنهم رفضوا الكنائس وقسسها كما رفضوا عبادة الصور المقدسة وطقوس الدين المسيحى[٢]. وكانوا يعيشون فى أمن منذ أيام قسطنطين الخامس فى آسيا الصغرى على حدود العرب يؤدون للامبراطورية الرومية فى عمليات الثغور أجل الخدمات. وقررت الحكومة قرارا قاسيا هو إرجاعهم إلى الارثوذكسية وإن هلكوا. وأعدت حملة لذلك على رأسها ليون بن أرجيز[٣]، وأندرونيك بن دوكاس[٤]، وسودااليس[٥]، فقادوا حملة لا مجال فيها للرحمة، فشنق البولصيون بالآلاف، وأغرقوا وذبحوا

---

(١) Stevan Runciman; The Medieval Manichee; Cambridge 1955, PP. 48-9

(٢) Ibid., P. 50.

(٣) ظهر اسم ليون بن أرجير فى أنشودة تشيد بانتصار البطل الرومى عند نهر الفرات. وسنشير إلى ذلك فيما بعد.

(٤) أندرونيك دوكاس هو اسم القائد الذى اختطف ابنته الأمير العربى موصور.

(٥) ظهر اسم سودااليس فى مخطوطة الاسكوريال وكذلك فى مخطوطة أندروس على أنه عربى يعمل فى خدمة القائد الذى اختطف ديجنيس ابنته. وقد كان سودااليس من بين الذين أسرعوا وراء ديجنيس لإنقاذ الفتاة فقتله ديجنيس.
ويرى مافروجورداتر (انظر ص ٣٩ من مقدمة كتابه) أن هذا هو الأثر الوحيد فى الملحمة الذى يكشف عن كراهية ديجنيس للعرب..
ولكننا نرى الآن أن سوالديس هذا كان قائدا بيزنطيا، مما يؤكد لنا أن إضافة صفة العربى إلى سودااليس إنما جاءت متأخرة.

ونزعت أملاكهم. واضطر البوليصيون أمام مثل هذا الاضطهاد أن يفروا إلى ما وراء الحدود فتلقاهم العرب فرحين، وأنزلوهم فى مواضع أمينة وأدخلوهم بعد ذلك فى جيوشهم، فاشتركوا بعد ذلك فى حملاتهم على الروم أكثر من مرة. وهكذا أدى هذا التعصب الأعمى فى سياسة الروم إلى نتائج خطيرة هى هدم الحدود الشرقية وهى الخندق الحامى من الغزو العربى»[1].

ولم يكن هذا أول اضطهاد عاناه البوليصيون من الدولة البيزنطية، فالمؤرخون يرون أنهم قد عانوا من الاضطهاد قبل ذلك. وقد كان نتيجة ذلك الاضطهاد أن رحل زعيمهم قرباص Karbeas إلى ما وراء أقليم قبادوقيا بجماعة من رجاله يبلغ عددهم خمسة آلاف. وهناك وضعوا أنفسهم فى حماية أمير ملطية ومنذ ذلك الحين أخذوا يتوافدون على أقليم قبادوقيا وبنطس[2]. ثم «بنى البولصيون لأنفسهم مدينتين على حدود أرمينية فى منطقة سيواس الجبلية، وهما مدينتا أرجايوس وأمارا، فقصدهما من أهل دينهم عدد كبير، حتى اضطروا إلى بناء مدينة ثالثة غير بعيدة عن الأوليين وهى تفريق «دفريجى»[3]، فأصبحت منذئذ مركزا أو عاصمة للبوليصيين، وفى هذه المدينة عاش رؤساء البوليصيين قرباص وكريزجيز وغيرهما»[4]. ثم

(١) فازلييف: العرب والروم ـ ترجمة الدكتورين شعيرة وفؤاد حسنين (دار الفكر العربى (ص ٢٠ ـ ٢٠٣).

(٢) Burry: History of the Eastern Roman Empire; London 1912, P. 277.

(٣) هكذا ورد اسم هذه البلدة فى الترجمة، وقد رجعنا إلى الطبرى فوجدناه يذكر الاسم هكذا: تفريق. وسوف نلتزم فى بحثنا هذه التسمية العربية القديمة.

(٤) فازيلييف، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

إنهم حاولوا متعاونين مع عمر الأقطع أمير ملطية وعلى بن يحيى الأرمنى أمير طرطوس أن يقوموا بغزوات عديدة فى أرض الروم إلى حد أن اتهم زعيمهم قرباص بتحوله إلى الدين الإسلامى[1]..

وأرادت الدولة البيزنطية أن تضرب ضربتها فتقضى على هؤلاء الهراطقة. وكان ذلك فى عهد الامبراطورة «تيودورا» التى كانت وصية على ابنها ميشيل الثالث (٨٤٢ ـ ٨٦٧م). فأرسلت حملة بقيادة أخيها «بترونا» سنة ٨٥٦م، فقام بغارات ناجحة فى سومسطة وآمد ثم تقدم إلى تفريق موطن قرباص فحطم وخرب وقفل راجعا قبل أن تلحق به جيوش البوليصيين أو العرب. ثم تكرر الغزو مرة أخرى من جانب الروم عام ٨٥٩م كما تدل على ذلك النقوش التى أمر ميخائيل الثالث بحفرها على أسوار قلعة أنقرة حين رمهما استعدادا للقتال، وحتى يعتمد عليها إذا ما ارتد إلى الوراء بجيشه. ولم تحرز هذه الحملة انتصارا أكبر من سابقتها[2].

وفى عام ٨٦٣ أراد ميخائيل الثالث أن يعيد المحاولة مع قواد جيشه فسار متجها إلى الفرات الأعلى عن طريق أنقرة وسباسطيا، .. وفى الوقت نفسه جمع عمر بن عبد الله الأقطع جيشه وعسكر بجانبه، وهزم ميخائيل الذى تمكن من الهرب. وسار بعد ذلك عمر ـ بطل ملطية ـ فى قلب آسيا الصغرى فاستولى على سينوب ثم سمسون، ثم وجد البحر أمامه فضرب فى أمواجه متجها إلى القسطنطينية. وعند ذلك ثارت ثائرة الحكام البيزنطيين وحشدوا كل جيوشهم وحاصر جندهم عمر الأقطع من جميع الجهات.

---

(١) Runciman: Op. cit., P. 41.

(٢) Bury: Op. cit., P. 282.

ولم يقو عمر على مواجهة تلك الجيوش الجرارة، فوقع أسيرا، ثم قتل وحمل رأسه إلى القسطنطينية[1]. وحين تم للروم القضاء على القائد العربى لم يصعب عليهم أن يوقعوا قرياص فى الأسر ويقتلوه كذلك. ورغم ذلك لم يشمل الهدوء منطقة الحدود تماما إذ سرعان ما جمع البولصيون شملهم بعد مقتل زعيمهم وعينوا عليهم زعيما آخر هو جون خريزوشير John Ghrysochair وهو ابن أخى قرياص[2]، هذا بالاضافة إلى أن مركز المسلمين كان مايزال قويا على الحدود الشرقية. فبالرغم من هلاك أشهر قوادهم ـ عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى عام ٨٦٣م ـ استطاعوا الاستيلاء على بعض الحصون، بل إن مركزهم كان قد قوى فى قبادوقيا شرق نهر الهاليس[3]..

وفى عام ٨٦٩م حاول بازل[4] المقدونى أن يعقد صلحا مع البولصين لعله يفرغ بذلك لتحقيق مطامعه فى إيطاليا، فأرسل إلى زعيمهم خريزوشير رسولا يحمل إليه الهدايا، فما كان من الزعيم البوليصى إلا أن رد الرسول قائلا له: «إذا كان الامبراطور يريد السلام فدعه يتنازل عن أطماعه فى الشرق

---

(١) Runciman: Op. cit., P. 41.

(٢) Bury: Op. cit., PP. 282-3.

(٣) Bury: Op. cit., P. 285.

(٤) بازل المقدونى مؤسس الأسرة المقدونية ومغتصب العرش من ميخائيل الثالث آخر أباطرة الأسرة العمورية. حكم من عام ٨٦٧ إلى عام ٨٨٦م. وتعد فترة حكم الأسرة المقدونية (٨٦٧ـ ١٠٥٧)م وعلى رأسها بازل الفترة اللامعة فى تاريخ الدولة البيزنطية.

ويفزع لسلطانه فى الغرب». وقد أراد الزعيم بذلك أن يسخر من أطماع بازيل المقدونى التى تسول له الاستيلاء على إيطاليا[1].

لكن بازيل لم ييأس، ففى عام ٨٧٠م تحرك بجيشه إلى تفريق، وحطم كثيرا من القرى البوليصية منها «أفارا وسباتى وكوبتس».. وفى عام ٨٧٢م استطاعت جيوش الدولة بأسرها أن تهزم البوليصيين وتقتل زعيمهم خريزو شير وتبعث برأسه إلى القسطنطينية، وبذلك انتهى خطر البولصين الذين دوخوا أباطرة الدولة البيزنطية سنين طويلة. أما خطر المسلمين فقد ظل يتهدد البيزنطيين بعد موت البطلين المجاهدين عمر بن عبد الله الأقطع الذى أدار شئون ثغور الجزيرة قرابة ثمان وعشرين عاما، وعلى بن يحيى الأرمنى الذى قام على شئون ثغور الشام أحد عشر عاما[2].

على أن الظروف التى مرت بها الدولة الإسلامية منذ أن تولى بازل الأول الحكم ٨٦٧م كانت من شأنها أن تساعد الأباطرة البيزنطيين على أن يضعوا أيديهم مرة أخرى على مناطق الثغور. ولم تكن الحروب التى قام بها سيف الدولة إلا محاولات مؤقتة لضمان سيادة الإسلام فى تلك المناطق. ولما شغل سيف الدولة بشئون الداخلية تمكن القائد البيزنطى «جون كاركوس» (٩٤٢ ـ ٩٤٣)م من الاستيلاء على ميافارقين ودارا ونصيبين. وفى عام ٩٤٤م استولى هذا القائد على أديسا التى كانت تحتفظ بأثر ثمين

---

(١) Runciman: Op. cit., P. 42.

(٢) Runciman: Op. cit., p. 43.

وانظر كذلك Cambridge Med. Hist., IV,

من التراث المسيحى، وهو صورة لوجه المسيح منطبعة فى شفته[1]، فاستولى على هذا الأثر وأرسله إلى القسطنطينية..

ولم يستطع سيف الدولة أن يقاوم خطر البيزنطيين بعد ذلك مدة طويلة إذ توفى عام ٩٦٧م. وبعد ذلك ساد الشغب منطقة الثغور مما ساعد البيزنطيين على أن يختموا الفصل المسرحى الأول للحروب الإسلامية المسيحية فى تلك المنطقة، وذلك بأستيلاء نقفور فوكاس على أنطاكية عام ٩٦٩م وعلى حلب عام ٩٧٠م[3].

وبذلك افتتحت هذه المنطقة عهدا جديدا انتهى ببداية الحروب الصليبية..

* * *

---

(١) Cambridge Med. Hist. 143.

(٢) قال الطبرى فى حوادث سنة ٢٤٢هـ: «وفيها خرجت الروم من ناحية شمشاط بعد خروج على بن يحيى الأرمنى وننهب عدة قرى وأسروا نحوا من عشرة آلاف إنسان، وكان دخولهم من ناحية تفريق قرية قربياس ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم. فخرج قربياس وعمر بن عبد الله الأقطع (فى موضع آخر عمرو بن عبيد الله ـ انظر الطبرى ط ابريل جـ ٣ ص ١٥٠٩) وقوم من المتطوعة فى أثرهم فلم يلحقوا منهم أحدا فكتب إلى على بن يحيى أن يسير إلى بلادهم شاتيا» ـ (الطبرى جـ ٣ ص ١٤٣٤). ثم يذكر الطبرى (جـ ٣ ص ١٥٠٩) حادثة وفاة عمر بن عبيد الله ويحيى الارمنى فى حوادث سنة ٢٤٩ هـ فيقول: «فما كان من ذلك غزو جعفر بن دينار الصائفة، فافتتح حصنا ومطامير، واستأذنه عمر بن عبيد الله الأقطع فى السير إلى ناحية من بلاد الروم فأذن له فسار ومعه خلق كثير من أهل ملطية، فلقيه الملك فى جمع الروم عظيم بموضع يقال له أرز من مرج الأسقف، فحاربه بمن معه محاربة شديدة قتل فيها خلق كثير من الفريقين.

ثم أحاطت به الروم وهم خمسون ألفا فقتل عمر وألف رجل من المسلمين»، ويذكر بعد ذلك أن يحيى قتل فى نفس السنة.

هذا هو الصراع التاريخى الذى وجد فيه مؤرخو الآداب البيزنطية الباعث الأول على تأليف الملحمة. إنه الصراع على السيادة فى منطقة الفرات بين العرب والبيزنطيين، ذلك الصراع الذى تراءى لمؤلف الملحمة متبلورا فى الحوادث التاريخية التى صورناها، والذى يتمثل فى انشقاق بعض الفئات على الدولة البيزنطية وانضمام المنشقين جهرا إلى منافس الدولة الأكبر، وأعنى به الدولة الإسلامية.

والآن نعرض لآراء الباحثين التى تحاول أن تربط ما صورناه من حوادث تاريخية بالحوادث التى تتألف منها قصة الملحمة. وسنبدأ بعرض آراء ساتاس وليجران، فهما أول من عنى بملحمتنا.

وقد عرض الباحثان منذ البداية لنسب ديجنيس الذى أوضحه والده الأمير العربى موصور فى بداية القصة. لقد قرر موصور أن أباه، خريزوفيرجس وأمه سباتا وأن جده لأمه هو أمبرون كما أن عمه هو كرويس ـ أو قرباص كما تذكره المراجع الغربية ـ..

ولما تزوج موصور بابنة القائد أندرونيك دوكاس أصبح ديجنيس ينتسب إلى أندرونيك دوكاس من جهة أمه. وإلى خريزوفيرجس من جهة أبيه..

وهنا يقف الباحثان وقفة طويلة فى بحث نسب ديجنيس من جهة أمه ومن جهة أبيه. أما نسبه من جهة أبيه فقد أعلن الباحثان أن خريزوفيرجس ليس إلا خريزوشير القائد البوليصى الذى حاربه بازل الأول وقتله. أما قرباص عمه فهو القائد البوليصى الآخر الذى كان خريزوشير صهرا له ووارثا لزعامته. أما أمبرون فهو الاسم الذى أطلقته المراجع البيزنطية على عمر بن

عبيد الله الملطى الذى كان قرباص يعمل معه ضد الامبراطورية البيزنطية. ولم يكن غريبا أن يرتبط اسما القائدين البوليصيين باسم القائد العربى، فالصلة التاريخية بين عمر الملطى والبوليصيين وعلى رأسهم قرباص ثابتة إلى حد أن اتهم الأخير بدخوله فى الإسلام كما ذكرنا. ولكن الغريب أن يرتبط نسب ديجنيس من جهة أبيه بالبوليصيين ثم من جهة أمه بأندورنيك دوكاس، مع أن الثابت تاريخيا أن أندرونيك هذا قد حارب البوليصيين.

وهنا يفسر الكاتبان هذا التناقض بما حدث فى التاريخ كذلك، فقد حدث أن كان فى قصر ليون السادس عربى هارب من طرسوس يسمى ساموناس، وكان الامبراطور قد أولاه ثقته. ولكنه طرح تلك الثقة جانبا وهرب إلى سوريا. وخشى الامبراطور من كثرة الشائعات حول ذلك فأرسل القائد أندرونيكوس دوكاس خلف ساموناس لكى يحثه على العودة. وقد عاد ساموناس، ولكن الشائعات ضد الامبراطور قد كثرت رغم ذلك. وحاول الامبراطور أن يبرىء نفسه فأوعز إلى أندروتيكوس أن يعلن فى البلاط أن ساموناس لم يهرب، وأنه إنما كان قد رحل ليوفى بنذر فى أحد أديرة سوريا. لكن أندرونيكوس أعلن فى البلاط الحقيقة. وهى أن ساموناس كان قد هرب إلى سوريا. وبعد ذلك تلقى القائد هيميريوس أمرا أمبراطوريا بأن يستعد بأسطوله لقتال العرب، وأن يصطحب معه أندرونيك، لكن ساموناس أوعز إلى أحد معارفه أن يكتب خطابا لأندرونيك ينصحه فيه بعدم الرحيل لأن الامبراطور يدبر ضده مؤامرة. وصدق أندرونيك الخبر وأمتنع عن الرحيل مع هيميريوس لقتال العرب. ولما رحل الأخير مظفرا ندم أندرونيك وخشى فى

الوقت نفسه حكم الامبراطور عليه نتيجة هاتين الحادثتين المتتاليتين فرحل إلى قلعة كبالا فى سوريا[1].

ويمضى الباحثان قدما فى التحقيق التاريخى معتمدين على المصادر اليونانية المؤرخة للدولة البيزنطية فيشير إلى أن هذه المراجع تتحدث عن نهب العرب لبيت أندرونيك دوكاس فى أثناء مقابلته للخليفة فى بغداد. ويقول المؤرخان أنه من المحتمل أن تكون ابنة أندرونيك قد أخذت سبية فى أثناء ذلك النهب. وقد كان أخوها قسطنطين معها فى البيت فى تلك الأثناء. ولهذا فإن اسم قسطنطين يذكر فى الملحمة بين أسماء الأخوة الآخرين[2].

أما سباتيا أم موصور وزوجة خريزوفيرجس فاسمها يشير إلى هذه الحوادث كذلك. فالثابت عند المؤرخين اليونان ـ كما يقول الباحثان ـ أن القلاع التى كان العرب والبوليصيون يشيدونها على نهر الفرات كانت تحمل أسماء

---

(١) Sathas et Legrand: Op. cit., P. XCII. ويذكر تاريخ كامبردج للعصور الوسطى حادثة هروب أندرونيك ولجوئه إلى العرب ومقابلته الخليفة فى بغداد ويحدد ذلك بعام ٩٠٧م. (انظر:
(Cambridge Med Hist. IV. 275).

(٢) انظر الملحمة، البيتين ١٣١ ـ ١٣٢ (مافروجورداتو). ويزيد جويجوار الأمر وضوحا بأن يذكر ـ نقلا عن المراجع اليونانية ـ أن أندرويك دوكاس لجأ إلى خليفة بغداد وأهلن إسلامه، وإنه لم يرجع بعد ذلك إلى بلاده رغم محاولات الامبراطور ليون السادس لارجاعه. أما ابنه قسطنطين فلم يتبعه فيما صنع وهرب إلى القسطنطينية. وهناك استقبله الأمبراطور بالحفاوة والحذر كذلك. (انظر:
Gregoire: L´age héroïque de Byzance; Paris 1933, P. 391.
وبذلك كسب قسطنطين إعجاب أفراد الشعب فصوروا بطولته فى أناشيدهم..

بانيها. ومن ذلك قلعة بناها خريزوشير تسمى سباتيا. ثم يقول الباحثان بعد ذلك أنه من المؤكد أن خريزوشير قد سمى القلعة بهذا الاسم تكريما لزوجته[١].

وإذا كان الباحثان قد أرجعا كل حادثة فى الملحمة إلى أصلها التاريخى فإنهما لم يغفلا البحث عن الأصل التاريخي للبطل ديجنيس أكريتس. فمن ديجنيس أكريتس؟.

يشير الباحثان إلى نص تاريخى لمؤرخ يونانى معاصر يدعى «ميشيل باسيليوس» يشير فيه إلى شجاعة أفراد أسرة دوكاس[٢] تلك الأسرة التى كانت تتخذ قبادوقيا موطنا. ويخص هذا المؤرخ بالذكر أندرونيكوس دوكاس وابنه قسطنطين دوكاس، ثم يهتم بصفة خاصة بشخصية أخرى هى شخصية «بانثريوس»[٣]. وعند ذكر هذا الاسم الأخير اعتقد الباحثان أنهما وجدا ضالته. إن «بانثريوس هذا ليس إلا الشخصية التاريخية لديجنيس. وقد أكد الباحثان رأيهما بأن هناك بعض الأغنيات التى تشيد ببطل اسمه

---

(١) Sathas et Legrand: Op. cit., P. LXXXIX.

(٢) يذكر تاريخ كامبردج للعصور الوسطى أن عائلة دوكاس كانت إحدى العائلات الاقطاعية البيزنطية التى كانت تسكن أقليم قبادوقيا وتنشر سلطانها فيه، وكان لهذه العائلة شأن كبير فى تاريخ الدولة. (انظر:
(Cambridge Med. Hist., IV 771.

(٣) Sathas et Legrand: Op. cit., PP. CXXV - CXXVI.

«بوفيريوس»، وأن هذا الاسم الأخير ليس إلا تحريفا لاسم بانثريوس[1]. ولكن من بانثريوس هذا وما دور البطولة الذى قام به حتى سجل الشعب ذكره فى أناشيد وملاحمه؟

أن الحادثة التاريخية التى تحتفظ بها المراجع الاغريقية فحسب تذكر أن الامبراطور «رومان ليسانى» قد عينه قائدا فى الشرق عام ٩٤٤م بدلا من كوركياس الذى كان ندا لسيف الدولة فى حروبه فى الشرق. ولكن اسم بانثريوس هذا لم يلبث أن اختفى من تاريخ الدولة البيزنطية ولمع اسم برداس فوكاس الذى حل محل كوركاس فى قيادة الجيوش المحاربة للعرب.

وقد يعترض معترض بأن تلك الحلقة التاريخية من حياة بانثريوس لا يمكن الاعتماد عليها فى إذاعة شهرة هذا البطل الذى قد تغنى الشعب ببطولته. ورغم أن الباحثين لم ينكرا ذلك فإنهما يقطعان بأنه كان بطلا لا يسعى وراء مطامعه الشخصية، وأنه لم يكن له هدف سوى صالح الوطن. وإلا أهمله المؤرخ باسيليوس الذى عرف بدراسته العميقة لتاريخ هذه الفترة ـ كما يقول الباحثان. وإذا كان المؤرخون خلاف باسيليوس لم يحتفلوا بهذا البطل، فذلك لأن الأباطرة قد تنكرت له كما تنكرت لآبائه من عائلة دوكاس من قبل.. أما الشعب فقد احتفظ بذكراه ومنحه لقب «ديجنيس أكريتس»[2]، ونسبه إلى عائلة أندرونيكوس.

وعند هذا الحد تنتهى محاولة الباحثين إرجاع كل حوادث الملحمة أو جلها إلى أصول تاريخية، وكذلك تحقيق شخصياتها تاريخيا. ولكننا نلاحظ

(١) يقال أن الشاهنامة قد خلدت بانثريوس هذا تحت اسم فارقوريوس. (انظر المرجع السابق ص ١٣٤).

(٢) Sathas et Legrand: Op. cit., p.C.

أنهما تجنبا تفسير ظهور ذلك الأصل العربى فى نسب ديجنيس، وإن كانا قد فسروا ظهور العناصر الأخرى من نسبه. وهما كذلك لم يفسرا معنى الاسم «ديجنيس» واكتفيا بأن ذكرا أنه كان لقبا أطلقه الشعب عليه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى اجتهد الباحثان فى الربط بين حوادث الملحمة وحوادث التاريخ ربطا محكما. ونحن لا ننكر أنهما قدما للعلم بذلك إشارات قيمة اعتمد عليها الباحثون فيما بعد فى دراستهم للملحمة، من ذلك تفسيرهم للأسماء «خريزوفيرجس ـ وأندرونيكوس ـ وأمبرون» وغيرها. ولكننا نلاحظ أنهما قد بالغا فى ذلك بعض الشىء. فتفسير شخصية البطل ديجنيس بالقائد «بانثريوس» ليست كافية، إذ لابد من تفسير تلك العناصر المشتركة من البوليصية والمسيحية والإسلام التى يرتبط بها جميعا نسب ديجنيس. وحادثة هروب، أندرونيكوس إلى العرب، وكذلك حادثة تعاون قرياص معهم لا تفسران ظهور العنصرين البوليصى والاسلامى فى نسب ديجنيس إذا كان الشعب قد أراد تخليد ذكرى بطل بيزنطى صرف.

* * *

وقد تلا دراسة ساتس وليجران للملحمة دراسة أخرى قام بها «أدونز». وقد اتفق هذا مع الباحثين السابقين فى الخطوط الأساسية من حيث صلة الملحمة بالتاريخ، فحوادث البوليصيين وانضمامهم للعرب، ثم محاربة القائد أندرونيكوس لهؤلاء وهؤلاء، ثم اختلاف أندرونيكوس مع الامبراطور ليون السادس وهروبه إلى العرب كذلك ـ كل هذه الحوادث ترسم الخطوط الأساسية لقصة الملحمة. ولكن «أندونز» بدلا من أن يتعمق البحث فى أسرة

دوكاس التى كان موطنها الأول مقاطعة قبادوقيا، وذلك كما فعل ساتس وليجران تمهيدا لإعلان رأيهما فى أن البطل ديجنيس كان شخصية بيزنطية تاريخية، نجده يسير فى اتجاه آخر. لقد أنكر أولا دعوى هذين الباحثين أن شخصية ديجنيس شخصية تاريخية بيزنطية فقال: «لقد زعم ساتس أن ديجنيس ـ بفضل شجاعته ـ أراد أن يعيد نظام الدولة المزعوم، فهو الذى أخضع الخارجين على الدولة الذين كانوا يسيطرون فى منطقة الفرات. ولكن شخصية ديجنيس أكريتس ـ حسب القصة الشعبية ـ لا ترتكز على أساس تاريخى يونانى ـ كما يدعى ساتس ـ وإنما ترتكز على أساس أرمينى بيزنطى[1]. لقد جعلت القصة، من خريزوشير جدا لديجنيس. ومن قربياص عما له. وهذا النسب البوليصى الأرمنى له مغزاه فى الملحمة. وإذا كان ديجنيس قد انتسب إلى العرب المسلمين من جهة أمه، فذلك لأن البوليصيين كانوا متعاونين مع العرب ضد البيزنطيين. وفضلا عن ذلك فإن الملحمة ليست يونانية حسب البيئة الجغرافية التى ولدت فيها أبطالها والتى وقعت فيها معاركهم، فقد كان نشاطهم فى منطقة وادى الفرات حيث كان سلطان البوليصيين يمتد من خرشنة حتى سومسطة، مشتملا على تفريق وملطية وميافارقين ثم أديسا. وقد كان يسكن هذه البلاد فى الأصل الأرمينيون، ثم أنها كانت منذ القرن التاسع إلى القرن الحادى عشر فى أيدى

---

(١) Adontz (N.): Les Fonds Historiques de l'Epoppée Byzantine Digénis Akritas; byzantische Zeitschrift 1929 -30, p. 213.

ومنطقة أرمينيا هى التى تقع بين آسيا الصغرى ومنطقة الفرات الأعلى وبحر القوقاز، وفى هذه المنطقة كان البوليصيون يعيشون..

الإقطاعيين من الأرمن.. هذه هى حدود البيئة المكانية التى نسجت فيها خيوط قصة ديجنيس أكريتس الشعبية.. وقد حورت القصة بعد ذلك على يدى شاعر يونانى مجهول ابتعد بها عن بيئتها الحقيقية»[1].

وعلى هذا تنتسب ملحمة «ديجنيس أكريتس» أصلا إلى الدولة المعادية للبيزنطيين، أى دولة البوليصيين الأرمنيين. ولم يكن ديجنيس إلا رمزا لتلك القوة المسيطرة على منطقة الفرات. أما ذلك الطابع البيزنطى الذى امتزج بالملحمة فلم يأت إلا متأخرا، حينما انتقلت الملحمة إلى البيزنطيين. ثم أن ناقلها لم يتمكن كذلك من التخلص من طابعها الأصلى فاحتفظ به جنبا إلى جنب مع المسحة البيزنطية التى أضفاها عليها..

* * *

ثم جاء جريجوار فألقى بعض الأضواء على أسماء الأشخاص والأماكن التى تذكر بالملحمة. وقد فعل ذلك مستعينا بالمراجع العربية واليونانية القديمة.

لقد أعلن الأمير العربى «موصور» منذ البداية أنه ابن امبرون، أى ابن عمر بن عبيد الله الأقطع. ولما كان ولد عمر بن عبيد الله الذى ورث بطولة أبيه يسمى أبا حفص، فإن هذا يعنى أن الأمير موصور هو أبو حفص أمير ملطية بعد أبيه. ويقول جربجوار إن أبا حفص ظل يحكم مكان أبيه فى ملطية إلى أن اندحر المسلمون فى منطقة الفرات. وقد عقد الامبراطور «رومان ليسابن» الصلح معه عام ٩٢٨م[2].

(١) Adontz: op. cit., p. 215.

(٢) Gregoire (H.) Les recherches récents sur l'epopée byzantine Antique Classique 1932, P. 432

هذا فيما يتعلق بالتفسير التاريخى لشخصية موصور. أما فيما يتعلق بديجنيس، فإن جريجوار يتفق مع ساتس وليجران فى أن شخصية البطل تصور شخصية بيزنطية صرفا، ولكنه يختلف معه فى أن شخصية ديجنيس ليست سوى شخصية بانثريوس القائد الدوكاسى. إن ديجنيس فى رأى جريجوار يصور قائدا بيزنطيا آخر اشترك فى معركة ضد المسلمين سنة ٧٨٨م وقتل فيها.. هذا القائد هو «ديوجينس». فقد قام المسلمون بغزوة فى آسيا الصغرى سنة ٧٨٨م واخترقوا جند أناتوليا حتى وصلوا إلى قبادوقيا، فجمع حاكم المنطقة جيشه وحاربهم ولكنه هزم وهلك كثير من رجاله من بينهم القائد «ديوجينس». و«ديويجنيس التاريخى ليس سوى ديوجينس الذى اشتهر فى أناتوليا سنة ٧٨٨ ميلادية فى إحدى المعارك ضد العرب»[١]..

ومما شجع جريجوار على القول بهذا الرأى والجزم بصحته ما عثر عليه الجغرافيون فى القرن التاسع عشر من آثار فى منطقة شرقى آسيا الصغرى. ومن بين هذه الآثار قبر القائد ديوجنيس الذى عثر عليه بالقرب من طرسوس[٢]. وتشير الملحمة إلى أن ديجنيس قد دفن فى طرسوس[٣]. وعلى ذلك فقد تشابه اسما البطلين، كما أنهما دفنا فى مكان واحد تقريبا، الأمر الذى جعل الباحث يجزم بأن ديجنيس هو الشخصية الملحمية للبطل التاريخى ديوجنيس..

---

(١) Gregoire (H.): Le Tombean de Digénes Akritas: Byzantion 1931, p. 501.

(٢) Gergoire (H.): Le Tombeau de Digénes Akritas: Byzantion 1932, Vll 286.

(٣). انظر الملحمة (مافروجورداتو ص ٢٤٧) البيت ٣٧٧٧..

ولكن كيف نفسر اختلاف أسماء الأمكنة التى أظهر فيها أبطال الملحمة بطولتهم عن تلك التى اشترك فيها القائد ديوجينس فى معارك لقى فى أحداها حتفه؟ هنا يجيب جويجوار بأن الملحمة قد تألفت من القصص الشعبية السابقة عليها ـ كما سبق أن بينا ـ تلك القصص التى تغنت ببطولة ديوجينس. وقد ذاعت تلك القصص فى منطقة الفرات، وفى غيرها من المناطق الأخرى المجاورة. وإذا كانت ملحمتنا قد كتبت فى القرن العاشر الميلادى كما يؤكد جرايجور حينما استقر الأمر بالبيزنطيين فى منطقة الفرات، فهذا لا يعنى سوى أن مؤلف الملحمة قد نقل البطل ديوجينس من عصر إلى عصر آخر[١]..

ويبقى بعد ذلك أن نشير إلى تفسير هذا الباحث لشخصية «فيليبابوس» رئيس العصابة المشاغبة عند نهر الفرات، وهو الذى حاول أن يختطف زوجة ديجنيس مستعينا بالأمزون. وهو يعرف فيليبابوس هذا بأنه آخر ملك حكم من أسرة كوماجين، التى ورثت الإسكندرية فى حكم منطقة الفرات. وقد توفى فى أوائل القرن الثانى الميلادى ومنه انتزاع الرومان الحكم فى هذه المنطقة وفرضوا سيادتهم عليها[٢]..

* * *

وإذا كان بعض الباحثين قد حاول أن يربط بين الملحمة والتاريخ ربطا تاما

---

(١) Gregoire: Autour de Digénes Akrites; p. 288.

(٢) Gregoire:(H.): L'Age Héroique de Byzance; Méanges offerts a M. Nicolas Iorga; Paris 1933, p. 385.

ويقال أن البوليصيين كانوا متأثرين بقصيدة مانى الثنائية. انظر:

فهناك كذلك من يتحرز فى ذلك مراعيا الأخلاط الكثيرة التى جعل منها الكاتب مادة لقصته. لقد اندمجت فى الملحمة فئات ثلاث: مسلمون ومسيحيون وهراطقة. وكان نتيجة هذا الاندماج ميلاد البطل ديجنيس أكريتس. وعلى ذلك تنتفى دعوى أن الملحمة كانت فى الأصل أرمينية، لأنها تمجد أبطال البوليصيين، إذ لو كان الأمر كذلك لا تضح لنا شيء من عقيدة البوليصيين فى ثنايا الملحمة، «اللهم إذا بلغ التفاؤل بالقارىء إلى حد القول بأن كلمة ديجنيس ترمز إلى العقيدة الثنائية»[1]. وكذلك من الصعب أن ندعى أن الملحمة نقلت من أصلها الأرمينى إلى البيزنطيين، وأن المؤلف الجديد لها قد حورها إلى ما فيه دعاية للدولة البيزنطية التى كانت تطمع فى أن تقضى على الخارجين عليها وعلى أعدائها المهددين لممتلكاتها، وأن تعيد امبراطوريتها التى سلبت منها فى منطقة الفرات، إذ لو كان الأمر كذلك لظهر نوع من العداء للبوليصيين فى الملحمة. وقد رأينا أن الأمر كان على العكس من ذلك، إذ أن الملحمة تمجد أبطال البوليصيين وتجعل منهم أجدادا لبطلها. «ولم يبق بعد ذلك سوى أن نقر بالحقيقة، وهى أن مؤلف الملحمة ـ كما هى عليه فى صورتها الحالية ـ يدهشنا بإنصافه البوليصيين والمسيحيين الأرثوذكس بمقدار ما يدهشنا بإنصافه المسلمين والمسيحيين. هذا إذا لم يكن موقفه ذاك يرجع إلى الجهل أكثر منه إلى الإنصاف»[2].

إن مؤلف الملحمة لم يكن يهدف إلى الدعاية لأى جانب، وإنما أراد أن يصور بخياله بعض المعارك التى سبقت عصره. ولو كانت هناك أفكار

(١) Runciman: The Medieval Manichée, p. 49.

(٢) Mavrogardato: op. cit. p. LXV.

سياسية أخرى تسيطر على المؤلف أكثر من أنه كان يفضل السلم لاستطاع أن ينوه بأن البوليصيين قد استخدمتهم الامبراطورية لإخضاع العرب أو تحويلهم إلى صفهم. مثل هذه الأفكار كان لابد أن يعبر عنها المؤلف بوضوح أو أنه كان يمتلكها[١].

وهكذا عارض مافروجورداتو كلا من الباحثين جريجوار وأدنز من حيث أن الأول يرى أن الملحمة تحمل فى ثناياها الدعاية للدولة البيزنطية وأن الثانى يرى أنها كانت ملحمة أرمينية فى الأصل ثم نقلت إلى البيزنطيين.

ومع إيمانه العميق بقيمة التحقق التاريخى الذى بذله من سبقه فى بحث الملحمة، عارض الإلحاح والإغراق فى هذا التحقيق. ومن ذلك ما فعله عندما حاول تفسير الربط بين شخصية القائد التاريخى «ديوجينس» وبين شخصيته بطل الملحمة ديجنيس. فالصفة «ديجنيس» بمعنى المولد كانت مألوفة فى القصص اليونانى وآدابها كما يقول الكاتب. هذا فضلا من أن الملحمة لم تؤلف حول قائد بعينه، وإنما ألفت حول شخصية بطل قصصى تبلورت فيه عواطف عصره الاجتماعية والسياسية معا[٢].

إن البحث العميق فى تفصيلات الملحمة بقصد إرجاعها إلى مصادرها من الحوادث التاريخية لا جدوى منه، بل إنه ربما عرض الباحث للتناقض والتورط فى بعض الأخطاء. مثال ذلك ما تعرض له جريجوار حينما حاول

---

(١) Ibid., P. LXVI .

(٢) Mavrogardato: op. cit., p. LXXII .

أن يشخص أبطال الملحمة تاريخيا، فقد عرف «ملينتزس» أحد الذين حاربوا مع فليبابوس ضد ديجنيس بأنه القائد الأرمنى «ميلاس» الذى حارب مع القائد البيزنطى كوركاس فى منطقة الفرات سنة ٩٣٨م[١]. هذا فى حين يعرف فليبابوس بأنه أحد ملوك الكومجين الذى توفى فى أوائل القرن الثانى الميلادى..

إن البحث التاريخى يتحتم حينما نحتاج إليه لتحديد زمن كتابة الملحمة مثلا. ولذلك تساءل الباحث عن اللقب «بازل» الذى خلعه الامبراطور على ديجنيس حينما زاره فى قصره على نهر الفرات.. هل تشير الملحمة بذلك إلى الامبراطور بازل الأول أم الثانى، وهنا يجيب مافروجورداتو بأن المقصود هو بازل الثانى الذى توفى عام ١٠٢٥م، ففى عهده استرد البيزنطيون سلطتهم التى كانت قد سلبت منهم سنين طويلة فى منطقة الفرات[٢].

وبعد ذلك لاتسرد علينا ملحمة ديجنيس حوادث تاريخية، وإنما تعرض أمامنا صورا من التاريخ قد نسقها مؤلف الملحمة بخياله حتى يصور لنا الصراع الذى كان على الحدود الشرقية[٣].

* * *

(١) Ibid., P. LXXIII.

(٢) Ibid., p. L XXIV.

(٣) Ibid., p. L. XXIII.

بقى الآن أن نشير إلى البحث الذى كتبه الأستاذ كرياكيدس للمؤتمر البيزنطى الذى عقد فى سبتمر سنة ١٩٥٨ بشأن ملحمة ديجنيس أكريتس. فقد استهل بحثه هذا بعبارة تفصح عن رأيه فى مشكلة صلة الملحمة بالتاريخ من حيث قبوله للمبدأ الذى يدعو إلى البحث فى الأصل التاريخى للملحمة. يقول: «إننى قبل أن أتعرض لتفصيلات الموضوع أتقدم برأيى مبينا أن الملحمة فى ملامحها العامة لاتثير مشكلات كثيرة. هذا فضلاً على أنها تتضمن أسماء أشخاص سبق أن دون التاريخ أعمالهم» ثم أخذ يتحدث عن ديجنيس فأقر فى تردد رأى جويجوار الذى يربط فيه بين ديجنيس وديوجينس البطل البيزنطى الذى قتل سنة ٧٨٨م فى الحوادث الشرقية كما ذكرنا. هذا وإن كان الأستاذ كرياكيدس لم يستطع أن يقطع بأن الصفة ديجنيس يمكن أن تشتق لغويا من ديوجينس[١]..

وعلى كل فقد رأى الكاتب أنه من الأفضل أن يبدأ بالبحث عن أجداد البطل، إذ كان البدء بتحقيق شخصية ديجنيس تاريخيا من الصعوبة بمكان. وهذا يشير إلى ما أشار إليه من سبقه من الباحثين من أن خريزوشير الزعيم البوليصى إنما هو خريزوفيرجس جد ديجنيس لأبيه، وأن عمر الملطى هو أمبرون جده لأمه. هذه الشخصيات التاريخية تجعله يجزم بأن الملحمة قد كتبت فيما بين سنة ٨٦٣م، وهى السنة التى قتل فيها عمر الملطى وبين سنة ٩٣٤م، وهى السنة التى استولى فيها نقفور فوكاس على ملطية

(١) Kyriakidis (St.): Forschungsbericht zum Akritas - Eops; Berichte zum XI interantionalen Byzantinisten Kongrss, Munchen 1958, S. 12.

وسومسطة، وبدأت فيها قبيلة بنى حبيب المسيحية تتدفق فى الأراضى البيزنطية. ودليل الكاتب على هذا أن الملحمة تشير إلى ارتداد أم موصور عن الإسلام وهجرتها بلاد الإسلام إلى الأراضى البيزنطية[١]. أما ما أشار إليه جويجوار من أن الملحمة قد كتبت بعد سنة ٩٤٤م فهذا مايعارضه الأستاذ كرياكيدس. وحجة الأستاذ جريجوار فى ذلك هى أن أديسا كانت قد سقطت فى تلك السنة وتسلم البيزنطيون الأثر المسيحى المقدس الذى يتمثل فى صورة المسيح وقد طبعت فى منشفته. وهو يرد على ذلك بأن أم موصور تتحدث بأن ذلك الأثر المسيحى كان ما يزال بأيدى المسلمين[٢].

وخلاصة رأى كرياكيدس أن الشاعر «مؤلف الملحمة» كان يهدف إلى كتابة تاريخ حياة أبطال عاشوا فى التاريخ والواقع، ولكنه شاء أن يستخدم فى ذلك أسلوب قصة قديمة معروفة لديه:[٣] أما السبب الذى دعاه لأن يكتب تاريخ حياة هؤلاء الأبطال فى تلك الصورة القصصية المنسقة فهذا مالم يذكر الأستاذ كريدياكيدس..

وبهذا نكون قد فرغنا من عرض الآراء المختلفة فى علاقة الملحمة بالتاريخ. ويمكننا الآن أن نلاحظ أن هذه الآراء تسير فى اتجاهين.. بعضها يحاول أن يجعل من كاتب الملحمة مؤرخا أكثر منه قاصا. ولهذا بحث أصحاب هذا الرأى ـ ونشير بخاصة إلى ساتاس وليجران وجريجوار ـ عن

---

(١) Kyriakidis: op. cit., S. 20.

(٢) Ibid., S. 21.

(٣) Ibid., S. 27.

كل اشارة بالملحمة يمكن أن يهتدوا بها للوصول إلى ملامح تاريخية من شأنها أن تلقى بعض الضوء على الأسماء والأحداث.. والبعض الآخر ـ ويمثله مافروجورداتوا ـ يقف عند الطرف المقابل فيذهب إلى أن مؤلف الملحمة كان قاصا رومنتيكيا، وأنه لم يكن متقيدا على الاطلاق بحوادث تاريخية أو بفكرة سياسية، وإنما كان يعيش فى غمار عصره ويشهد الأحداث، وأنه استطاع أن يمزج ما وعاه ذهنه من الأحداث المعاصرة له وغير المعاصرة، هادفا من وراء ذلك إلى الوصول إلى غايته وهى إشاعة السلام فى منطقة طالما نشبت فيها الحروب.

ونحن نرى أن كلا الاتجاهين متطرف. فالإسراف فى تفسير كل إشارة فى الملحمة بما يوازيها أو يشبهها من قريب أو بعيد بحوادث التاريخ أمر مجهد للغاية، فضلا عن أنه قد يؤدى إلى نتائج غير مجدية كما رأينا. وكذلك القول بأن مؤلف ملحمة لم يضع نصب عينيه أحداثا وشخصيات بعينها قول فيه بعض الإسراف، فلا يمكن أن نتصور أن مؤلف الملحمة قد ربط بين الحوادث والشخصيات التى ذكرناها فى ذلك النسق اعتباطا.

أما الهدف الذى ترمى إليه الملحمة فقد شرحه البعض بأنه إشاعة السلام، وشرحه البعض الآخر بأنه تعبير عن الزهو باستقرار الأمر للامبراطورية البيزنطية مرة أخرى فى منطقة الفرات. فهل أراد مؤلف القصة حقا أن يشيع فكرة السلام فى منطقة طالما سالت فيها الدماء، وأنه لذلك قد جعل الأجناس المتنازعة فى تلك المنطقة.. أعنى العرب والبيزنطيين والأرمينيين ـ تتحد فى شخصية بطل واحد هو ديجنيس الذى استقر كالأسد الرابض على شاطىء

الفرات ليحفظ السلام والهدوء فى المنطقة؟ إذا كان المؤلف قد أراد ذلك حقا فإننا نتساءل عن القوة التى استطاعت أن تشيع الهدوء فى المنطقة، أكانت قوة عربية أم بيزنطية أم كانت القوة الخارجية على الدولة البيزنطية؟.

لا يمكن أن يكون المؤلف قد تخيل أن تلك القوى المختلفة المتصارعة قد تداخل بعضها فى البعض الآخر تماما ،وأنه لم تعد هناك وجوه خلاف بينها وأن الجميع صاروا تسودهم قوة واحدة يصعب تمييزها، إذ هى مزيج من العربية والبوليصية والبيزنطية على حد سواء..

أما أن يكون المؤلف قد أراد الزهو بانتصار البيزنطيين على أعدائهم، فلم يكن هناك ما يدفعه لأن يجعل ذلك النصر يتم على يد بطل يكاد يكون غريبا عن الدولة البيزنطية والشعب البيزنطى..

إن تفسير هدف الملحمة يرتبط ولا شك بتفسير اندماج الأجناس الثلاثة فى نسب ديجنيس. وهذا لم يأت اعتباطا كما ذكرنا ـ بل لقد فكر فيه مؤلف الملحمة عن عمد قبل أن يشرع فى كتابة ملحمته. ولكننا سنرجىء رأينا فى هذا الصدد حتى نفرغ من مناقشة ما فى تفسير الروح الإسلامى العربى الذى يبرز فى الملحمة.

* * *

(جـ) الروح الإسلامى العربى فى الملحمة

رأينا أن ساتاس وليجران قد تجنبا الحديث عن الجانب العربى الإسلامى فى الملحمة إلا ما يشير إلى أن أمبرون هو عمر بن عبيد الله الأقطع أمير ملطية، فلقد ركز جهدهما فى محاولة إثبات أن الملحمة بيزنطية الأصل ولا أساس لمؤثرات خارجية فيها. وقد دعاهما ذلك إلى إطالة الحديث عن البطولية البيزنطية التى صورها مؤلف الملحمة فى أسرة دوكاس التى اشتهرت ببطولته أفرادها ونزاهتهم وسعيهم وراء مصلحة الوطن..

وكذلك شغل أدونز بالبحث عن الأصل الأرمينى للملحمة ـ شغل به عن التفكير فى العنصر العربى الإسلامى، ولم يشر إلا إلى أن الأسماء العربية قد ذكرت بالملحمة لما كان لأصحابها من صلة بحوادث البوليصيين. أما الملحمة فقد نشأت أصلا فى بيئة أرمينية ثم انتقلت إلى البيئة البيزنطية بعد أن تمكن مؤلفها الجديد من تحويرها بما يتفق والسياسة البيزنطية[١].

ولكن إذا كان ساتاس وليجران قد نظرا إلى الملحمة من زاوية بيزنطية صرف، وإذا كان أدونز قد نظرا إليها من زاوية أرمينية، فإن جريجوار قد نظر إلى الملحمة من زاوية عربية بيزنطية. فالجزء الأول من الملحمة الذى يتحدث عن الأمير العربى موصور: عن بطولته وزواجه من ابنة القائد البيزنطى ثم ارتداده عن الإسلام، هذا الجزء الأول من الملحمة الذى انتهى بميلاد البطل ديجنيس إنما يشير ـ فى رأى جويجوار ـ إلى تأثير ملحمة عربية فى الملحمة البيزنطية[٢].. ولكن ما حقيقة هذه الملحمة العربية وما

---

(١) Adontz: op. cit., p. 215.

(٢) Gregoire (H.) et Goossens (Roger): Byzantinisches Epos und arabischer Ritterroman; Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft - Leipzig 1934, S. 220.

نواحى تأثيرها فى الملحمة البيزنطية؟ أما هذه الملحمة العربية ـ التى لا وجود لها اليوم ـ فهى تلك التى دارت على ألسنة الشعب العربى المجاهد فى منطقة الثغور تمجيدا لبطلهم الأول عمر بن عبيد الله الملطى..

هذه الحقيقة يجزم بها جريجوار بعد أن رأى أن هذه الملحمة الملطية قد تركت أثرها واضحا فى القصص الشعبى العربى والبيزنطى على السواء. فسيرة ذات الهمة تحتفظ باسم البطل الملطى إلا أن أنكرت بطولته، وكذلك تصنع قصة عمر النعمان[1]. على أنه إذا كان القصص العربى لم يبرز بطولة بطل الثغور عمر الملطى فإن الملحمة البيزنطية قد أبرزت ذلك فظهر اسم عمر مشرقا فى الجزء الأول من الملحمة.

وهنا ينبغى أن نتساءل: ما الدافع الذى دعا الشاعر البيزنطى إلى تخليد ذكرى عدو بلاده الأكبر؟ ويجيب على ذلك جريجوار بأن ملحمة عمر الملطى التى افترض أنها عاشت بين سكان منطقة الثغور قد انتقلت إلى البيزنطيين، وأن مؤلف الملحمة البيزنطية شاء أن يحتفظ ببعض حوادثها جنبا إلى جنب مع قصة البطولة البيزنطية التى تتمثل فى ديجنيس[2]..

وعلى هذا تتألف الملحمة البيزنطية من جزئين: جزء مصدره عربى بحت، والجزء الآخر بيزنطى. أما الجزء العربى فهو الذى يمجد بطولة عمر ابن عبيد الله وولده، وأما الجزء البيزنطى فهو الذى يمجد بطولة «ديوجينس»

---

(١) يرجح جويجوار أن حكاية عمر النعمان تجنبت ذكر الأسماء التاريخية. وليس ببعيد أن يكون عمر النعمان هو عمر بن عبيد الله.

Ibid, S. 222.

(٢) Gregoire: les recherches recents sur l'epopée Byzantine, S. 428.

الذى سقط فى معارك سنة ٧٣٣م فى أقليم قبادوقيا. وقد ظلت قصتا الأبطال الثلاثة تعيشان بين سكان الثغور العربية والبيزنطية حتى جاء العصر الذى انتقم فيه البيزنطيون من العرب حينما استردوا منهم منطقة الفرات. وحين ألف الشاعر ملحمته حول هذا النصر استفاد من القصتين. ومن أجل ذلك ظهر الروح العربى واضحا فى الجزء الأول من الملحمة، كما ظهر الروح البيزنطى جليا فى جزءها الثانى. وقد استطاع الشاعر أن يربط بين الجزئين بأن جعل الأمير العربى يعلن ارتداده عن الدين الإسلامى بعد زواجه من ابنة القائد البيزنطى. وقد كان ثمرة هذا الزواج البطل «ديجنيس أكريتس»..

لقد خصص الأستاذ جريجوار ومن تبعه من تلاميذه ـ ونخص منهم بالذكر «جوسون» ـ الجانب الأكبر من أبحاثه لدراسة بعض عوامل التأثير العربية فى الأدب البيزنطى. وقد كانوا يستعينون فى ذلك بأبحاث المستشرق ماريوس كنار فى الآداب الشعبية العربية. وسنشير فى الجزء الخاص بالمقارنة من هذا البحث إلى الآراء المختلفة فى هذا التأثير.

ونحن إذ نشكر للأستاذ جويجوار التفاته للمظهر الإسلامى فى الملحمة نعلن أن الملحمة فى صورتها الحالية ليست ولم تكن ـ جزأين وإنما هى كل مكتمل. وإذا كان مؤلف الملحمة من سكان القطاع الشرقى كما تدل على ذلك التحديدات الجغرافية فى الملحمة ذاتها ـ فإنه لابد أنه كان يستمع إلى الأغانى والقصص العديدة التى تمجد الأبطال فى تلك المنطقة، ولابد أنه قد تأثر بذلك، ولكنه حينما كتب ملحمته كان مشبعا بفكرة

خاصة به فعبر عنها من خلال ذلك الاطار التاريخى الذى كان يعيه، والذى يربط فى نفسه الأحداث فى نسق خاص.

إن المنطقة التى وقعت فيها حوادث الملحمة واضحة ومحددة. منطقة انتزعت من أيدى البيزنطيين وظلت فى أيدى العرب زمنا طويلا. وفى هذه المنطقة كان يسكن الأرمن الذين لم يكونوا موالين للبيزنطيين موالاة تامة. وكان يسكن بها كذلك الخارجون على الدولة البيزنطية كالبوليصيين. فإذا أضفنا إلى هذين العنصرين العنصر العربى، تبين لنا كيف أن المنطقة التى اتخذت منها الملحمة موطنا كانت تحمل عداوات مختلفة للدولة البيزنطية. هذه العداوات المختلفة ظهرت واضحة فى الملحمة، بل أن ديجنيس البطل هو ثمرة هذه العداوات. كان خريزوفيرجس عدوا للدولة، وكان أمبرون ـ أى عمر الأقطع ـ كان مناوئا عنيدا لها، ثم كان أندرونيك دوكاس خارجا على الامبراطور، وقد لجأ إلى العرب وأعلن إسلامه وقضى بقية حياته بينهم. وكل هؤلاء انتسب إليهم ديجنيس. فلم يبق بعد ذلك إلا أن نعلن أن ديجنيس كان حفيدا لأعداء الدولة، أى أنه كان عدوا لها كذلك.

هذا الفرض الذى نفترضه تؤيده بعض الشواهد. وهى شواهد نقع على بعضها فى الملحمة ذاتها ونتمثل بعضها فى البيئة الأدبية البيزنطية التى كانت تتغنى بكفاح البيزنطيين مع العرب..

أما شواهد الملحمة فبالإضافة إلى ما ذكرناه، نشير إلى قول ديجنيس عندما استدعاه الامبراطور فى مقابلته. لقد رد عليه ديجنيس قائلا: «إننى لا أعجز عن فعل شىء إذا أراده الله، ولكنك إذا أردت أن تلقى خادمك الأمين فإن الطريق لن يستغرق منك أياما حتى تكون بجانب الفرات. فإن

شئت رؤيتى فستجدنى بجانب شاطئه[1]. فمثل هذه اللهجة لا يمكن أن يتحدث بها سوى خارج على الامبراطور..

وهناك دليل آخر نستند إليه من نص الملحمة. فحينما توفى ديجنيس شهد جنازته ممثلو القطاعات الشرقية. وقد كان من بين الذين شهدوا الجنازة كبار رجال بغداد[2] ونبلاء بابليون وآمد..

ونحن نتساءل: لماذا لم يشهد الجنازة وفود أخرى من القسطنطينية كذلك، وهى عاصمة الامبراطورية البيزنطية، إذا كان ديجنيس بطلا بيزنطيا خالصا؟ ثم لماذا شهد الجنازة كبار رجال بغداد إذا كان ديجنيس رمزا للبطولة البيزنطية التى حاربت العرب سنين طويلة؟

وهناك شاهد آخر نجده فى قصة شعرية بيزنطية قصيرة. وهى إحدى القصص القصيرة التى تتغنى بحوادث الثغور. وبطل هذه القصة هو ديجنيس. وتحكى القصة أن ديجنيس حاول الزواج من فتاة بيزنطية. فرفضت أمها وأعلنت أنها لا يمكنها أن تزوجه ابنتها لأن أمه مسلمة وأباه يهودى. «وربما كان لفظ يهودى هنا إشارة إلى هرطقة خريزوفيرجس» وهذا يدلنا على أن الشعب البيزنطى لم يكن يتغنى بديجنيس بوصفه بطلا بيزنطيا..

لقد كان مؤلف الملحمة الأول مواطنا من القطاع الشرقى ولا شك كان شرقيا بعاداته وكان شرقيا حين عبر عن ظروف المنطقة التى عاش فيها فترة من فترات تاريخها الحاسمة. ولم يكن المؤلف شرقيا فحسب، بل كان شرقيا متعصبا حينما نسب بطله إلى مشاهير رجال الشرق وقد شاء المؤلف بذلك

(١) انظر الأبيات من ٢٠٧١ إلى ٢٠٧٤.
(٢) انظر الأبيات من ٣٧٤٣ إلى ٣٧٤٤.

أن يحفظ لرجال الشرق سلطانهم الكامل فى منطقتهم. ولقد تحقق ذلك على يد ديجنيس الذى كان ينتسب إلى عمر الأقطع، البطل العربى الذى وقف كالجبل الأشم فى وجه البيزنطيين فترة طويلة، وإلى خريزوفيرجس الأرمينى الخارج على الدولة البيزنطية والذى سخر من بازل الأول حينما طلب منه الصلح فأجابه بقوله: «إذا كان الامبراطور يريد السلام فدعه يتنازل عن أطماعه فى الشرق ويتفرغ لأطماعه فى الغرب»، والذى كان ينتسب إلى أندرونيك دوكاس البيزنطى الأصل، الذى ضاق بسياسة بلاده فهرب إلى الشرق وأعلن إسلامه ومكث هناك إلى أن توفى..

ثم مرت الملحمة بمرحلة انتقال بعد ذلك حينما تناولها مؤلف شرقى كذلك كان يميل إلى السياسة البيزنطية فأضفى على القصة شيئا من ميوله البيزنطية والمسيحية ولكنه لم يستطع أن يتخلص من طابع القصة الأصلى. ومن يدرى، فربما كانت قصة موصور فى الأصل شيئا آخر، وأنه حينما سبى إبنة الامبراطور أندرونيك وتزوج منها. لم يهجر بلاده إلى الأراضى البيزنطية حيث ارتد عن دينه الإسلامى، وإنما بقى فى بلاده وعلى دينه وتزوج من ابنة أندرونيك التى أنجبت ديجنيس. إذ ماذا يعنى أن يهجر موصور بلاده إلى الأراضى البيزنطية متنكرا لدينه وأهله، ثم يعود ابنه ديجنيس فيهجر بلاد البيزنطيين ليستقر فى القطاع الشرقى حيث كان أبوه.

وعلى كل، فرغم التحوير الذى تعرضت له الملحمة، ظل طابع القصة الأصلى يضفى على الملحمة مسحة عربية إسلامية لا تخفى على باحث.

* * *

بعض الأغنيات الشعبية البيزنطية

٢ـ أنشودة عمورية :

وإذا كانت ملحمة ديجنيس قد خصت جند قبادوقيا بالذكر دون الأجناد الأخرى لما وقع فيه من حوادث ألهبت خيال الشاعر، فإن هناك بعض الأغانى التى تخص بالذكر أجنادا أخرى اشتركت فى أحداث تاريخية خالدة. وهذه الأغانى تقتصر على عرض مشهد واحد من حياة أحد الأبطال، تماما كما رأينا فى تلك القصص القصيرة التى كان الشعب يتغنى بها والتى افترض البعض أنها أصل ملحمة ديجنيس. غير أن هذه الأغانى تختلف عن تلك فى أنها تستقل عن ملحمة ديجنيس بحوادثها وأبطالها..

ونعرض الآن لأنشودة عمورية. وتتغنى هذه الأنشودة بحوادث عمورية التى فتحها الخليفة المعتصم وخربها سنة ٨٣٨ حين علم أنها «عين المسيحية وأساسها»[١] وقد فعل ذلك انتقاما من تخريب تيوفيل لزبطرة سنة ٨٣٧م.

(١) فازيلييف: العرب والروم. ص ١٢٤.

وتتلخص قصة هذه الأنشودة فى أن أرموريوس الذى وقع ولده وأخوته فى أسر العرب، عزم على أن ينتقم من العرب ويخلص أهله من الأسر. ووقف أرموريوس على شاطىء الفرات يسرح النظر فى أمواجه المتضاربة وأوحاله المتراكمة، وإذا به يجد فرسان العرب يقفون مدججين بالسلاح على الشاطىء الآخر من النهر وكلهم عيون يقظة خوفا من هجوم أعدائهم على أراضيهم. لكن أرموريوس لم يطل التأمل والتفكير، وإنما هتف بقوله: «شكرا لك يا إلهى بل ألف شكر. إنك منحتنى القوة وإنك على سلبها لقادر»[١]. فما كاد ينتهى من هتافه حتى سمع صوتا ملائكيا يقول له: «ثبت سيفك فى جذع النخلة، وعلق ملابسك على مقبض السيف ثم خز حصانك وأعبر النهر، وسوف تعبره فى لحظة إلى الشاطىء الآخر»[٢]. وفى لحظة كان البطل قرب الشاطىء فهتف بقوله للعرب الذين وقفوا له بالمرصاد: «سلحوا زنفسكم أيها الأعراب.. درعوا أنفسكم ولا تجعلوا الشك يتطرق إليكم فى أننى سأعبر الفرات إليكم فإن أرمورويولوجى بطل شجاع»[٣].

رتزاحمت الأعراب على الشاطىء بقدر عدد النجوم وأوراق الشجر وردوا عليه قائلين: «هدىء من روعك يا أرموريوس وانتظر برهة.. ألا تسمع صوت الأبواق.. الأبواق الكبيرة؟ إن أسراك مقيدون فى مكان ما فى بابليون فامض إليهم إن استطعت»[٤].

---

(١) Gregoire: Autour de Uigénes Akritas; Byzantion 1932. p. 291.

(٢) Gregoire: Loc. cit.

(٣) Ibid., p. 293.

(٤) Loc. cit.

ثم انطلقت أصوات الأبواق ودقت الطبول. وانتاب البطل الرعب، وأيقن أن لا سبيل إلى بلوغ مكان أسراه، لكنه استجمع قواه وهتف: «إن استطعتم أيها الأعراب أن تحولوا دون أرموريوس فهيا تقدموا. خذوه من حوض الماء حيث يستحم. خذوه وقودوه لولده ليراه أسيرا»[1]. وفى لحظة حمل الأعراب السيوف وانتزعوا البطل من الماء وحملوه إلى الأمير العربى. وقد كان استقبال الأمير للبطل البيزنطى على عكس ما كان يتوقعه الأخير إذ دعاه الأمير تناول الطعام معه ثم قال له: سأرجع يا أموريوس إلى مكان أهلك وأطلق سراح ولدك. لقد اخترته زوجا لاحدى بناتنا. ولن تكون هذه ابنة عمى أو ابنة أختى ولكنها ابنتى. فإذا ولد له ولد فسأجعله يتعلم كيف يحب العرب ويقتسم ما يغنمه بينه وبينهم وكيف يعيش فى سلام معهم»[2].

وقد رأى جريجوار أن الأسماء التى أطلقت على هذا البطل، وهى مرة أرموريوس ومرة أموريس، وثالثة أرموريولوجى ـ إنما هى تحريف لاسم عمورية. وقد خلع الشاعر هذا الاسم على البطل تمجيدا للأسرة العمودية التى انتهى حكمها بوفاة ميخائيل الثالث[3]. ولكننا نرى أنه رغم التصريح فى هذه الأنشودة بالعداء بين العرب والبيزنطيين ورغم ذلك التحفز والتحرش بين الفريقين الرابضين على شاطىء الفرات، كان الشاعر مشبعا بفكرة السلام كما هو الحال فى ملحمة ديجنيس. وهو لم يشأ أن يجعل السلام

(١) Gregoire: op. cit., p. 293.

(٢) Loc. cit.

(٣) Gregoire: Nouvelles Chansons Epiques des lXe et' Xe siecles: Byzantion 1939, XIV 242.

يسود على يد شخص بيزنطى صرف أو عربى خالص، لكنه شاء أن يكون ذلك على يد بطل آخر مولد يحب العرب وينشر معهم لواء السلام.

إن هذه الأنشودة نفحة أخرى من نفحات شاعر شعبى عاش بين العرب وأحبهم وأراد أن يندمج فيهم حتى يشيع السلام فى المنطقة المشتعلة بالدماء.

* * *

٣ـ أنشودة خرزانيس

وإلى جانب ملحمة ديجنيس وأنشودة عمورية نجد أنشودة خرزانيس، وخرزانيس إشارة إلى اسم جند خرزيانون كما يرى البعض[١]. وإذا كانت هذه الأنشودة لم تتغن بحوادث القتال بين العرب والبيزنطيين فإنها لم تخل من نفحة من نفحات الشرق. على أننا لا نذكر هذه الأنشودة للنفحة الشرقية التى تشيع فيها فحسب، ولكن لأنها تتفق مع قصتنا العربية الشعبية «عمر النعمان» فى أكثر من وجه. وسنشير إلى ذلك فى موضعه من البحث.

وتحكى قصة هذه الأنشودة أن خرزانيس أحب فتاة وإن لم يتحدث إليها على الإطلاق. لذلك راح ينفق المال والذهب عند بابها ولكنها لم تمنحه كلمة حب. وذات يوم بينما كانت خارجة للاستحمام التقى بها فى الطريق وبثها حبه. وعاد إلى أمه مسرورا وطلب منها أن تعينه على الزواج من فتاته. ولم تعارض الأم رغبته بل طلبت منه أن يتزوج منها زواجا دينيا.

---

(١) Gregoire: Echanges Epiques Arabo - Grecs; Byzantion 1932, VII 378 وملخص القصة مستمد من الترجمة الفرنسية لجريجوار..

واستعدت القساوسة لإتمام مراسم الزواج ثم حملت الخمور وقطع الذهب إلى الفتاة، ودخلت الفتاة لمقابلة الرسل الموفدين من قبل خرزانيس، والذين قدموا لها الخمر والذهب. فما كان منها إلا أن سكبت الخمر وبعثرت النقود وقالت لهم: «إننى لا أريده زوجا لى بل لا أريد أن أراه جارا لى». وخرج الجميع يتعثرون من الخزى. ولكنهم قبل أن يهبطوا فى درجات السلم قالت لهم: «إن لى مطالب ثلاثة فهل يستطيع القيام بها؟ اننى أطلب منه أن يهشم الصخر وأن يقلم النخل وأن يحتضن الريح وأن يحزم البيض فى حزمة واحدة وأن يبذر القمح والشعير فى البحر فيكبر، فإن هو استطاع ذلك كان الله قد بعث إلى بأفقر عبد لكى أتزوج منه»[1].

ثم نزل الجميع وكان خرزانيس ينتظرهم أمام الباب، فحكوا له ما حدث فحزن واكتأب ونزل توا ليعد حصانه للرحيل، فإذا بحصانه يحدثه ويسدى إليه النصيحة. لقد دعاه إلى أن يتنكر فى زى فتاة بعد أن يحلق شاربه، ثم يذهب إلى الفتاة ويتحدث معها ويخبرها أن صلة نسب ترتبط بينهما. فإذا ما فتحت له الفتاة بابها تودد إليها وشرح لها ما يعانيه من فقر، وعندئذ سترق له الفتاة وتدعوه للمبيت لديها، وبذلك يستطيع أن يفض بكارتها، وحينئذ تقبل الزواج منه.

وصنع خرزانيس ما أشار عليه به حصانه، ودخل إلى الفتاة وأعطاها مخدرا وقضى ليلته معها. وفى الصباح استيقظت الفتاة مذعورا من رؤيا رأتها. رأت كأنها تقف وسط الحشائش تحمل ورودا حمراء وإذا بسيف يسقط

(١) Gregoire: op. cit., p. 372.

من السماء ويستقر بجانبها. وأخذ خرزانيس يؤول لها الرؤيا ويشرح لها أن الورود ترمز لبكارتها وأن السيف يرمز لخرزانيس الذى أحبها..

وتتبين الفتاة ما حدث لها وتغضب وتذهب تشكو إلى ملك بابليون أحد جنوده قد فض بكارتها. ويذعر الملك ويطلب منها أن تصف له ذلك الجندى فتخبره الفتاة أنه طويل كالسرو ونحيف كالشمعة. ويعرف الملك من ذلك الوصف أنه خرزانيس فيأمر باستدعائه. ويقابل خرزانيس الملك فى هدوء وكبرياء كأن شيئا لم يحدث. ويطلب منه الملك أن يتزوج الفتاة وإلا تزوجها الملك نفسه، فيرد عليه خرزانيس قائلا: «إننى أعيش حرا، أنام على الأشجار وآكل ما تشتهى نفسى من الفاكهة. لقد كنت حرا عندما قبلت الفتاة وأنا الآن حر فى أن أتزوجها. إننى أقرر إننى لن أتزوج الفتاة بل سأتركها لك»[1]..

وحينئذ رحل الملك والفتاة وحاشيته حتى وصلوا بابليون وهناك تزوج الملك من الفتاة..

هذه هى أشهر الأشعار الشعبية التى تغنت بالشرق والمتنازع عليه من العرب المسلمين والبيزنطيين المسيحيين دهورا طويلة. واننا بعد أن عرضنا للانتاج القصص الشعبى لدى هؤلاء وهؤلاء، ذلك الانتاج الذى ارتبط خاصة بذلك النزاع، نمضى لعقد المقارنات فى هذا النتاج المحلى لدى الشعبيين لنرى إلى أى حد كان التأثير والتأثير متبادلا بينهما وإلى أى حد كانت الدوافع النفسية لانتاج هذا التراث الشعبى متفقة أو مختلفة بين الشعبين..

* * *

(١) Ibid., p.